ذاكرة عراقية

رئيس مجلس الادارة رئيس التحرير

فخري كريم

ملحق اسبوعي يصدر عن مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

العدد (2236) السنة التاسعة

الإثنين (29) اب 2011

5

لنتذكر فخري الزبيدي

صورة للملك فيصل الثاني في احد شوارع لندن

بغداد أجمل من أسطنبول

رحالة فرنسية تكتب مشاهداتها سنة 1881

الانتخابات النيابية في العهد الملكي

(الحلقة الثانية)

معن عبد القادر آل زكريا
باحث ومؤرخ

حيث تم في عهد حزب (العهد) تصديق المعاهدة العراقية البريطانية المعروفة باسم (معاهدة سنة ١٩٣٠) التي جوبهت في حينها بالرفض وقيام المظاهرات والاحتجاجات . فقد كانت الشعارات المرفوعة على اليافطات صدى لارادة المتظاهرين .. (يحيا العراق) و (ارادة الأمة فوق الجميع) و (لا معاهدة .. فليسقط الخونة) . ومع ذلك تم عقد المعاهدة في الثلاثين من حزيران سنة ١٩٣٠ فأضربت مدينة بغداد واستمر الاضراب دون انقطاع لمدة اربعة عشر يوما .

وبعدها حدث خلاف داخل العهد حين قدم جميل المدفعي رئيس مجلس النواب مذكرة احتجاج على تصرفات مزاحم الباجه جي . وفي سنة ١٩٣٥ شكّل المدفعي وزارته الثالثة مُدخلاً معه السعيد في تلك الوزارة وعيّن علي جودت الأيوبي رئيس حزب الوحدة الوطنية رئيساً لمجلس النواب .

وعلى أثر ذلك الخلاف قام المدفعي بالانفصال عن حزب السعيد وعمل لوحده على تأسيس حزب سياسي جديد يدعو اليه معارفه ويجمع تحت خيمته أنصاره وكل من يناصب الباشوات (الهاشمي والسعيد) العداء ...!!

وقد تأملت الشخصيات التي تقدمت إلى المدفعي بمساعدتها في اسناد الحزب، ان يكون هذا العهد مفتاحاً جديداً للعمل السياسي الوطني وملاذاً خالصاً من تأثير النفوذ البريطاني لما عرف عن المدفعي مناوئته الانكليز وخاصة مواقفه العدائية منهم في ثورة تلعفر سنة ١٩٢٠ . الا ان طموح مؤيدي المدفعي في ذلك ذهب أدراج الرياح حين قام بكر صدقي بانقلابه المفاجئ سنة ١٩٣٦ فانتهت بذلك حياة حزب العهد وحزب الوحدة (الذي لم ير النور) فتشتت السياسيون جميعاً شذر مذر في الآفاق . ومما يجدر ذكره ان حزب الوحدة الوطنية الذي أسسه في أيلول من سنة ١٩٣٤ علي جودت الأيوبي كان على أثر الانشقاق الذي حصل داخل حزب الاخاء الوطني الهاشمي ، وقيام الأيوبي بتشكيل الوزارة في ٢٧ آب سنة ١٩٣٤ .

ومن أبرز قادته صالح باش أعيان وسالم قاسم أغا وبهاء الدين النوري ونجيب الراوي وحازم تحسين أغا والحاج رايح العطية وعبد الهادي الجلبي . وقد ثبت لنا من خلال التدقيق والتمحيص ان حزب المدفعي (حزب الوحدة) كان مشروعاً لتأسيس الحزب ولم يثبت لنا انه أجيز تحت أي شكل من الأشكال ولم يمارس نشاطاته ، ودليلنا على ذلك أن كتابين مهمين صدرا في العراق وناقشا بتفصيل مسهب تاريخ تأسيس الأحزاب هما كل من كتاب (الأحزاب السياسية في القطر العراقي للفترة من ١٩٠٨-١٩٥٨) المطبوع سنة ١٩٧٧ لمؤلفه الفاضل عبد الجبار حسن الجبوري ، وكتاب (الأحزاب السياسية في العراق ١٩٢١-١٩٣٢) المطبوع سنة ١٩٧٨ لمؤلفه الباحث الدكتور فاروق صالح العمر . ولم يذكر أي منهما شيئاً عن ذلك الحزب . الا انه يتحتم علينا ان ندون الحقائق التاريخية كما حدثت لا كما يراد لها ان تكون ، حيث ان شخصيات موصلية مشهود لها بالوطنية والاخلاص والت الحزب وقوت تأسيسه (بأمل وظنينة) حيث قامت جريدة العُقاب لصاحبها السائح العراقي يونس بحري بنشر البرقية الواردة من الموصل إلى الجريدة بعددها ذي الرقم ١٧٢ الصادر في ١٨ تشرين الثاني ١٩٣٥ . وقد أوردت الجريدة ذلك الخبر برتويسة تقول : (الموصل تؤيد حزب الوحدة وعلى رأسه الزعيم المدفعي) . ثم أعقبت الجريدة تذكر في التفاصيل (هبطت على ادارة جريدة العقاب برقية من أعيان ووجهاء الموصل وقادة الرأي فيها يؤيدون جميل بك المدفعي وحزبه الوحدة . ولاشك ان ذلك لدليل ساطع على ما للزعيم جميل بك وصحبه من المكان في قلوب الأمة) .

عنهم : مصطفى الصابونجي ، احمد بك الجلبلي ، عبد الله باشعلام ، محمود خيري النائب ، الدكتور داؤد الجلبي ، محمد صدقي سليمان (الكهية) المحامي ، المحامي ياسين أفندي العربيي ، سعد الدين المحامي ، سليم الجراح ، حاج مصطفى سري .

وباختصار ، يمكننا القول أن جميع المجالس النيابية ، ومن ضمنها المجلس التأسيسي ، تألفت كلها ، بترشيح الوزارات القائمة في حينها ، ولم يكن لأي وزارة أن تسير على غير هذه الطريقة ، كون قانون الانتخاب لا يتفق وحالة البلاد الثقافية والاجتماعية ، حتى بعد مضي عشرين سنة على تأسيس الحكم الوطني .

يمضي خير الدين العمري في تدبيج ذكرياته عن الانتخابات قائلاً :

إذا فلا مناص للوزارات من اتباع قانون الترشيح ، أو تبديل الأصول الموضوعة لانتخاب النواب في القانون الأساس وقانون الانتخاب ، تلك الأصول التي ظهر فشلها بصورة لا تقبل الجدل ... إذا لم تدهورت الحياة النيابية في العراق من سيئ إلى أسوأ ...؟! سؤال يتوجب على كل من يتصدى لكتابة تأريخ العراق أن يضعه في صدر أولوياته ... وفي يقيننا أن أحد أهم الأسباب هي احتضان الأقرباء والمحاسيب والمناسيب ولنا في موقف عبد المحسن السعدون من رفضه ترشيح ابن أخية توفيق السعدون لملء دائرة متصرفية العمارة الانتخابية، علما ان الهيأة الإدارية لحزب التقدم (وكان عبد المحسن السعدون أمينه العام) كانت قد أوصت في غيابه بترشيح توفيق لقناعة الهيأة بكفاءة المرشح وثقافته ما يؤهله للنيابة .

وكان أن انطوى هذا الأسم من التداول وتم ترشيح سواه ... وهكذا كان ... ومما يجدر بنا ذكره أنه بعد انتحار عبد المحسن السعدون وانحلال النيابة في لواء المنتفك أعاد حزب التقدم ترشيح (توفيق السعدون) مكان المغفور له عمه ونجح بالطبع وأصبح نائباً ولكن بعد وفاة عمه وزوال نفوذه كرئيس للحكومة .

وهناك أسباب أخرى أدت إلى ضعف العملية النيابية . إذ من المعلوم أن القانون الأساس لا يجيز حل المجلس إلا لسبب وجيه ، وإذا تم حل المجلس لذلك السبب ، فلا يجوز حل المجلس الجديد لأجل ذلك السبب نفسه . وفي الغالب يكون سبب حل البرلمان هو اختلاف في وجهات النظر بين الحكومة والمجلس في مصالح يُدّعى أنها تخص المصلحة العامة للبلاد ..

ويسبب مكوث أغلب المجالس النيابية فترات قصيرة ، فقد غدت النيابة أمراً غير مستحباً عند العامة من الناس ومن غير النواب ، إذ نتج عن ذلك أن غدا الإقبال على الانتخاب ضعيفاً في كثير من الدوائر ، وقد شاب عملية الانتخابات - على مرّ تعاقبها - وقائع مضحكة ، كثيراً ما تندّر بها العامة قبل الخاصة ، فوصلت إلى أبناء الشعب الاعتياديين يروونها لأولادهم وأهل بيوتهم ...

ومنها القصة الآتية : سادت في فترة من الفترات فكرة إقناع الصحافيين بالعملية النيابية فتسابقوا إلى ترشيح أنفسهم ، أو ترشيح أي منهم شيئاً عن ذلك الحزب . الا انه يتحتم الوزارة رجال أسود ... فقلنا له : أننا لم نقل أنهم ثعالب ...!! وفي هذا المقام توجب علينا أن نقدم إحصاءً طريفاً عن المجالس النيابية منذ أول يوم تأسيسي وكما يأتي :

لقد جرت في العراق تسع عمليات انتخاب ، وتألفت تسعة مجالس نيابية . وكان عدد النواب (٨٨) نائبا إلى سنة ١٩٣٤ ثم أصبحوا في وزارة علي جودت (١١٠ نائبا) . وبهذه المناسبة ، أردنا - نحن الباحث - أن نذهب قليلاً في بعض تفصيلات تشكيل المدفعي - حزب الوحدة - ... فضلاً عن بعض الأمور السياسية التي سبقت ذلك ، عليه نقول:

كان في يقين نوري السعيد عند تشكيله لحزب العهد ان يكون ذلك تيمناً بجمعية العهد التي تشكلت في العهد العثماني وكان السعيد من أبرز أعضائها .

ومما ثبت تاريخياً أن أساس اقدام السعيد على تشكيل الحزب هو الحاح الملك فيصل الأول عليه بعد الاتفاق مع المندوب السامي البريطاني (فرنسيس همفريز) على فكرة مفادها ان السعيد هو أبرز من يستطيع عقد معاهدة جديدة للعراق مع بريطانيا بناء على طلب وإلحاح من جانب الأخيرة . وفعلا حصل ذلك ، زعيم الحزب وإصابة أهدافه . والآن أرى نفسي أمام شيء جديد تعافه النفس الأبية ، وإني لست مستعداً لقبول هذا الشرط المخلوط ، لأن بهذا التعهد المخلوط يراد من المرشح أن يشتري كرسي النيابة بصك يدل على الذل والمسكنة ... فأي خير في مثل هذا النائب المملوك ...؟!

فالحكومة تريد أن تستند إلى المجلس وتبرم المواثيق والأحلاف مع الدول الأجنبية ، لذا كان عليها أن تكون قوية بمجلسها النيابي ..

ثم كان عليّ أن أودع المتصرف وأخرج ... وكانت نتيجة هذه المكالمة بطبيعة الحال أن الحكومة أخرجت إسمي من بين مرشحيها ، ولابد أنها وجدت من يعطي مثل هذه الصكوك...

ولأن الحكومة أرادت التشدّد في هذا الموضوع وعدم التسامح بأن يكون الضمير القاطع لغير مرشحيها ، فقد وجهتْ الإنذار إلى الموظفين المهدّدين بقطع الأرزاق وسوء المصير . وكان أن حصل في فترة قبل الانتخابات الثاني أن أذاعت الحكومة بشتى الوسائل أن (نيلا) لقانون انضباط موظفي الدولة سيصدر قريبا وفيه يحق فصل الموظف بقرار من مجلس الوزراء .

وأفهم الموظفون من طرف خفي بأن سيرهم أثناء الانتخابات سيكون له أثر في مصاير وظائفهم .

وقد حكى لي أحد أصدقائي أن (أمره) حضر إلى مقره الرسمي لإفهامه (بالذات) أسماء مرشحي الحكومة . وكان أن رأى الأمر أحد أولاد الموظف المذكور كان متواجداً في الدائرة حينذاك . فأشار إليه الأمر أن يتقدم نحوه ، فلما فعل الطفل قال الآمر وهو يقدم نصائحه الى الوالد : أرجوك فكّر في مستقبل هذا الطفل فيما إذا خالفت أوامر الحكومة ...!! في الحقيقة كان هذا إسفافا ما بعده إسفاف ... وسخافة تصل بالآمر إلى درك أسفل من التفاهة ...!!

ويمضي خير الدين العمري يسرد ذكرياته عن الانتخابات قائلاً :

وقد جرى قبل هذا الاستفتاء ثلاث انتخابات أحدها انتخاب المجلس التأسيسي ، ولم يصل أسماء المرشحين . ولما عاد زرته في مكتبه الرسمي. وبعد السلام والسؤال أخرج من جيبه المفكرة السنوية الخاصة به وفتحها وقال: انظر هذه أسماء مرشحي الحكومة ، ثم أن إسمك على رأس القائمة . فلما نظرتُ القائمة رأيتُ إسمي وشهرتي على رأس الأسماء ، فقلتُ : نشكرهم ونشكركم ، فقال : ولكن هناك شرطا ...!! فقلتُ : وما هو ؟! قال : أن تعطي تعهداً خطياً بقبولك المعاهدة ، ثم بدخولك حزب الحكومة وهو حزب العهد . فوجمتُ ... ثم أردفتُ قائلا : ولم كل هذا ؟ قال : هذا هو أمر رئيس الوزراء . قلتُ : ولكنني رشحتُ للنيابة مرتين ، وكانت هناك أمور جسام ، وكان هناك رئيس ، وكان هناك وزراء... وأحدهم هو نفسه نوري السعيد ، لكنني لم أكلف بمثل هذا التكليف المهين فقد اعتمدوا علي شرفنا وقولنا ...

حتى أنني قد بقيتُ نائباً مستقلاً أكثر من شهر ولم أدخل حزب التقدم إلاّ بعد أن طلب إليّ المرحوم عبد المحسن السعدون الاشتراك في حزبه ، فذهب إلى بغداد لتلقي (الوحي النهائي) عن أي قانونيّ ؟!... فأجبته القانون الأول قانون الانتخاب المكتوب ، الذي لا حكم له إلا تسجيل (خلاف الواقع) ... أما القانون الثاني فهو قانون الترشيح (غير المكتوب) ... فضحك الباشا ... وقال : لا .. لا .. القانون الأول ... الأول ...!! يستقيضُ خير الدين العمري في مذكراته قائلاً :

وتقريراً للواقع ، نقول أن الوزارات كانت قد سارت في موضوع الانتخابات على وفق أسلوب واحد وهو الترشيح وضمان انتخاب المرشحين ، غير أنه كان هناك بعض الشذوذ في الطرائق ، كان لها أثر شديد في إذلال الحياة النيابية وجعلها عالة على البلاد .

فالضربة الأولى جاءت على يد نوري السعيد في وزارته الأولى سنة ١٩٣٠ .

وتفاصيلها كما يأتي : كانت الانتخابات سنة ١٩٣٠ قد تقدمت وكادت أن تنتهي . وكنتُ عضواً في الهيئة التفتيشية ومنتخباً ثانوياً ومرشحاً للنيابة . وكان تحسبّن علي متصرفاً في الموصل ، فذهب إلى بغداد لتلقي (الوحي النهائي) عن

خير الدين العمري

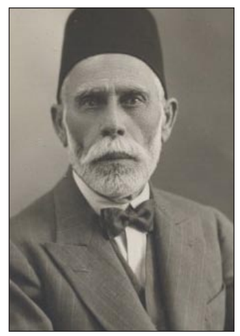

جميل افندي

ياسين الهاشمي

رشيد عالي الكيلاني

روفائيل بطي في قائمة ترشيحات لواء البصرة ، وبعد أن اكتشف الكاتب خطأه ، وأن روفائيل بطي هو ابن الموصل وليس البصرة ...!! عاد عن خطئه وكتبه مرة ثانية في قائمة ترشيحات لواء الموصل وأرسل بها برقية ، وبقي سليم حسون (خارج المالك) ، مع العلم أن الكاتب لم يشطب اسم روفائيل من البصرة ، وهكذا أصبح - بعد أن ظهرت النتائج - أن روفائيل بطي (فاز بالنيابتين) شمالاً وجنوباً ... إلاّ أن ذوي الأمر تلافوا القضية ، فقام روفائيل واستقال من نيابة البصرة ... شاكراً البصريين الكرام على ثقتهم الثمينة التي وضعوها فيه ...!! وفي البصرة (بعد أن شغر مقعد نيابي واحد) جمعوا الناس مرة أخرى من جميع أطراف اللواء (كما ينص القانون) وانتخب سليم حسون ... أي ان هؤلاء المساكين الذين جمعوا عادوا ووضعوا (بالحسون) ما كانوا قد وضعوه (في البطي) من ثقة ثمينة ... فجاء الآن دور الحسون ، فقام وشكرهم بدوره على ما وضعوه فيه من ثمين الثقة ...!!

ومن طريف ما ذكره السائح العراقي يونس بحري في جريدة العُقاب عن موضوع الصحافة والترشيح للانتخابات النيابية ، قال البحري ساخراً من كلا الصحفيين السمعاني وبطي وتحت عنوان شارع الصحافة ايام زمان ... الكراسي لا تنتزع العقائد ..! :

كانت جريدة العقاب التي أسسها ورأس تحريرها السائح العراقي يونس بحري لا تألو جهداً في توجيهِ النقد اللاذع للسياسيين كما للصحفيين فضلاً عن الكتّاب والشعراء والعاملين في الحقول العامة الاجتماعية والاعلامية ، وحسبما تتطلبه ظروف الصراع السياسي والصحافي للساحة العراقية يومذاك . ففي العدد الثالث الصادر في الرابع والعشرين من شهر تشرين الثاني سنة ١٩٣٣ نشر البحري انتقاداً في جريدته إلى بعض الصحافيين من زملاء المهنة قال فيه : (السمعاني وبطي) من بلدة واحدة ، ويشتغلان في حرفة واحدة وهما من لحم ودم واحد الا انهما مع ذلك يختلفان في الرأي والمبدأ ... وفضلاً عن ذلك فهما يختلفان عن بعضهما في الطول والعرض.

فالسمعاني (عبدي) إلى قامة ظفره ، وبطي (إخائي) إلى قمة رأسه ولأجل ذلك يقوم كل منهما والدعاية لحزبه . بطي يذهب إلى مصر فتحتفي به الأوساط والاعراض ، ويزور النحاس باشا فيرد النحاس زيارته ويصرف المال مثل حاتم الطائي .

والسمعاني في بغداد يسير مع (ي) فرنكول المهاجر الموصلي فيشتغل بالقضية (التيارية) مدافعين عن حقوق العراق ...!!

وحرام على الزملاء ان يقضيا الوقت بالمشاحنات في حين ان الواجب يدعو الجميع لمعالجة قضايا البلاد الحيوية ... على الاقل راعوا حقوق المهنة يا أساتذة ...!

وفي العدد الصادر في الثامن من كانون الأول من سنة ١٩٣٤ كتب البحري بقلمه بوصفه رئيساً للتحرير مقالاً جعل له عنواناً في وسط الصفحة يقول :(الكراسي لا تنتزع العقائد) إلى الزملاء النواب سليم حسون - عبد الغفور البدري - روفائيل بطي . الحمد لله على سلامة الوصول - وصولكم إلى الكراسي الوثيرة التي تهواها قلوبكم الرقيقة . فقد كان طريقاً وعراً محفوفاً بالمخاطر .. وشكراً للظروف التي وضعت صاحبة الجلالة في مقام يليق بها ...!

وقد ظهر لنا فيما بعد أصل قصة الأخطاء الحاصلة والتي أدت إلى الصدام في المصالح ، ثم عودة المصالح إلى ما كانت عليه ... كل هذا يحدث والناخب المسكين ، سواء كان ابن الموصل ، أو أبن البصرة ... ليس له من أمره سنداً ...

فيحكي المفسّرون قائلين : ان الكاتب الي كتب البرقيات السرية بترشيحات الحكومة كتب اسم

جميل المدفعي

بكر صدقي

وحضر نيابة المجلس عند استلامه كتاب الدعوة الذي وصله في داره وينص فيه على تعيينه (عينا) . ولما جاء إلى بغداد ورآه الوزراء اكتشفوا (ساعتها) أنه ليس الرجل المطلوب أو المرغوب فيه ، وأن الكاتب قد أخطأ المقصود (وعنون) الكتاب الرسمي إلى كربلاء بدلاً من النجف . فكانت يومها غلطة فظيعة استصعب إصلاحها ، كون المذكور تأبط كتاب العينية العتيدة بكل شدة واقتحم باب قاعة الأعيان واحتل مكانه بينهم . فأراد الوزراء إقناعه كي يفسح المجال للرجل المطلوب ، غير أن الرجل كان منيع الجانب ، فضرب ما قالوا به عرض الحائط ، وقام وأقسم اليمين القانونية بالمحافظة على القانون الأساس وما احتواه القسم القانوني (كذا ...!!) . فكادت أن تحصل أزمة ، غير أن الرجل استأسد واستحصن في مجلس الأعيان ، ولم يبرح الأرض ، وبقي عيناً (على عينك يا تاجر) ...! وأما الرجل الثاني ، فقد عاد إلى النجف يحمل خفي حنين ، لاعناً أجداد ذلك الكاتب اللعين ...

تعقيب :

لقد تولدت لدينا القناعة التامة - نحن الباحث - أن هذه الرواية (رواية العينين حاملي الأسم نفسه) ورواية (الصحافي النائب سليم حسون والصحافي النائب روفائيل بطي) حدثت على أرض الواقع على وفق ما رواه السيد خير الدين العمري (تمام التمام) ، وكثير غيرها ، كان قد حدث ، أو يمكن أن يحدث ، وشواهدنا كثيرة مرّ علينا ذكر أشباهها ونحن نسجّل هذا السفْر من تأريخ العراق . إلاّ أن النقطة المفقتة للنظر والقابلة للمناقشة في مثل هذه الوقائع أحد أمرين

١. إما أن بدايات تأسيس الدولة العراقية كانت أرضاً خصبة لحدوث من مثل هذه المفارقات بسبب هشاشة الوضع الإداري والثقافي قبل أي شيء آخر ...!!

٢. أو أن علاقة الدولة بالكوادر السياسية (وزراء ، نواب ، صحافة) كان من النوع الذي يمكن أن تحصل تحت قبته تبادل أوزار ارتكاب الأخطاء ، دون محاولة إيقاع أي طرف ، الطرف الآخر في بؤرة الإثم القاتل ...!! الأمر الذي أدّى إلى حصول أخطاء والتباسات ، كانت وستظل تعدّ من الأمور العجيبة والغريبة ... لا يمكن حدوثها على مستوى مؤسسة تجارية صغيرة ... فكيف تحدث على مستوى كوادر عليا في مؤسسات الدولة السياسية... وتظال أحوال ومستقبل شخصيات سياسية لها مكانتها في طابور العاملين في الحقل الوطني والسياسي . - الباحث -

وفي كتابه : محمد حديد - مذكراتي - الصراع من اجل الديموقراطية في العراق - تحقيق نجدة فتحي صفوة الصادر عن دار الساقي في لندن سنة ٢٠٠٦ ...

يسطر ذكرياته في خمسين سنة ، السياسي والاقتصادي العراقي محمد حديد ، أحد أبرز مؤسسي الحزب الوطني الديموقراطي ، ووزير المالية والتموين في زمن نوري السعيد سنة ١٩٤٦ ، ووزير المالية في زمن عبد الكريم قاسم بعد ١٤ تموز ١٩٥٨ .

يقول محمد حديد على الصفحة ٤٢ من مذكراته بخصوص الانتخابات ، الآتي :

(... وقد شاهدت في صباي عملية انتخاب المجلس البلدي ، الذي كان والدي يرشح نفسه له . فقد كان حق الانتخاب محصوراً بالذكور الذين باستطاعتهم أن يدفعوا مبلغاً معيناً من المال "من مثل ضريبة العقار" بحسبه الحد الذي يمكنهم" على وفقه " من الإدلاء بأصواتهم . كذا فإن الفرد الذي لا تبلغ قدرته على دفع الضريبة تبعا لذلك الحد يحرم من التصويت . وكان التصويت يجمع برسائل من الناخبين ، لتودع فيما بعد في المركز البلدي .

وفي يوم معين تفتح تلكم الرسائل ويتم جردها لمعرفة الفائزين الذين يبلغون بالنتيجة بعد أن يقرّها الوالي .

وقد تغير هذا النظام الانتخابي لاختيار أعضاء المجلس البلدي بعد قيام الدولة العراقية الحديثة . وفيما يأتي أنموذجا لما كانت تجري عليه انتخابات المجلس البلدي على وفق ما جاء ذكره في جريدة الموصل ذي العدد (٤٨٥) الصادرة في ١٨ شباط سنة ١٩٢٢ .

المجمع العلمي العراقي
التأسيس والمسيرة

عبد الحسين البغدادي
باحث تراثي

كانت لجنة الترجمة والتأليف والنشر تشغل البناية الكائنة خلف الاعدادية المركزية للبنين قبالة نادي الضباط تشاركها في البناية مديرية التربية الرياضية، وحين صدر نظام المجمع في ١٩٤٧/١١/٢٦ تقرر ايجاد بناية تليق به.

فكانت دار السيد عبد الله لطفي، الواقعة قرب مديرية الاوقاف العامة، خلف جامع الملك وبقي المجمع مثابرا على ايجاد بناية له، ففكر في اشغال (المدرسة المستنصرية) فذهبت مع عدد من الاعضاء ، ولدى الكشف عنها وجدناها غير ملائمة ، مما اضطر المجمع لاستئجار دار واسعة في الوزيرية تعود الى ورثة المرحوم رؤوف الكبيسي ببدل سنوي قدره ١١٥٠ دينارا، ولما خفضت ميزانية المجمع فيما بعد ، اصبح من الصعب عليه وضع هذا البدل العالي، فانتقل الى دار اخرى في شارع الزهاوي تعود الى الانكوزلي، وكان يسكنها الاستاذ الحصري.

وحاول المجمع ان يحصل على قطعة ارض من الاراضي العائدة الى وزارة المعارف في جانب الكرخ والمنوي –انذاك– انشاء المتحف العراقي عليها وحصلت موافقة الوزارة على ذلك فخصصت له سبعة الاف متر مربع.

واقترنت بموافقة وزارة المالية ايضا ، وما كاد المجمع يسجل الارض باسمه حتى عارضت ذلك بعض الجهات الرسمية وبدأت بوضع العقبات ومنها الغاء فكرة تأسيس المجمع نهائيا ، ولكن المجمع بذل جهودا جبارة في سبيل الحفاظ على ما بناه وحققه في المجال العلمي. وحين خفضت ميزانيته لم يعد قادرا على القيام بمشاريعه مما اضطره الى الاستغناء عن بعض موظفيه وايقاف بعض مشاريعه كما سنبين ذلك وشيكا، الا انه بقي يلح في الحصول على الارض ليتخلص من دفع بدلات الايجار الباهظة، وتكللت مساعيه بالحصول على قطعة ارض في الوزيرية مساحتها ٢٥٠٠م٢، وهي الارض التي اقيمت عليها بنايته الحالية، وعندما انتهت معاملة تسجيل الارض باسمه بادر فورا الى مفاتحة وزارة المعارف ووزارة المالية لبناء بناية بسيطة ينتقل اليها فوافقت وزارة المالية على صرف مبلغ لايتجاوز الثلاثة الاف دينار لهذا الغرض فشكلت لجنة من السادة الدكتور مصطفى جواد والدكتور احمد سوسة وكاتب السطور للاشراف على العمل وبمعرفة المهندسين الذين اختارتهم وزارة المعارف للتنفيذ واخيرا تم اكمال البناية حسب التصاميم التي وضعتها وزارة المعارف، وبقيت فضلة من المبلغ المخصص بنيت به غرفة اضافية ومرافق اخرى، وما تبقى من المبلغ اعيد الى الخزينة المركزية.

ولما كثرت الكتب التي المراد نشرها، قرر المجمع ان تكون له مطبعة خاصة به، وعهد الى الاستاذ الاثري ومتي عقراوي وجواد علي، دراسة الموضوع ومفاوضة احدى الشركات لتجهيز المجمع بمطبعة حديثة، بمعرفة السيد قاسم المنجد –مدير مطبعة الحكومة انذاك –وتمت عملية الشراء وقمت انا باجراءات فتح الاعتماد اللازم في مصرف الرافدين نيابة عن المجمع، بقيمة ٦٠٠ دينارفقط، وعند وصولها الى بغداد اتصلنا بمطبعة الحكومة لارسال احد المنصبين الفنيين، فارسلت ابراهيم الهايس الذي قام بنصبها، اما الحروف فقد تمكنا من الحصول عليها من المتيسر في بغداد، ومن مسبك الشرق في القاهرة، وتم تعيين طباع واحد وثلاثة منضدين (مرتبين) وفيها طبعت كتب المجمع ومجلته ونشراته، ولما توسع العمل ، عين لها ملاحظ وعدد آخر من المنضدين.

مكتبة المجمع:

عندما كانت لجنة الترجمة في البناية الكائنة خلف الاعدادية المركزية ثم انتقلت الى اماكن اخرى، انتقلت معها الكتب داخل صناديق غير مرتبة بعدها الت الى المجمع ولم تكن هذه الكتب كما اسلفت مصنفة ومسجلة في فهارس وحين استقر الوضع في دار السيد رؤوف الكبيسي عينت ملاحظا للمكتبة –اضافة الى اعمالي الاخرى–فبادرت اولا الى تصنيفها وجردها وترتيبها وتسجيلها في السجلات ، وحيث انني لا امتلك خبرة في علم المكتبات، لذا بدأت بقراءة ودراسة طريقة (ديوي) في ترتيب المكتبات، كما استعنت بالطريقة المتبعة في مكتبة الاثار القديمة العامة، التي كان الاستاذ كوركيس عواد يشرف عليها، والذي له الفضل الكبير في ارشادي وتوجيهي، وراجعت كذلك طريقة المكتبة العامة في بغداد، والتي كان يشرف عليها الاستاذ نهاد عبد المجيد، واستعنت كذلك بطريقة مكتبة دار المعلمين العالية، ولا اكتم ان هذه المراجعات والتتبعات اخذت مني وقتا وجهدا كبيرين، فكنت اداوم حتى ساعات متأخرة من الليل، وكم كانت فرحتي عظيمة حين وجدت الطريقة التي اتبعتها في التنظيم ما زالت متبعة حتى الان.

الشعبة الفنية :

×اسس المجمع شعبة فنية، زودها باحدث الالات التي استوردتها من انكلترا ومنها جهاز (فوتوستات) لتصغير الكتب والخرائط وجهاز (مايكروفيلم) للتصوير وفانوس سحري، وجهاز سينمائي وجهاز قراءة، يدير هذه الشعبة ملاحظ فني يعاونه مستخدم واحد، وقد قامت بخدمات جليلة للباحثين وللدوائر الحكومية ولمكتبة المجمع.

×دأب المجمع على دراسة المصطلحات الفنية التي ترد اليه من مختلف الدوائر، ليضع ما يقابلها من كلمات عربية،ومن هذه الدوائر مديرية السكك، والبرق والبريد والموانئ ووزارتا الداخلية والمالية.

المحاضرات :

×نظم المجمع محاضرات كثيرة دعا اليها المهتمين بالثقافة والعلم والادب، فكانت اولى المحاضرات محاضرة الشيخ الشبيبي في قاعة فيصل، كما القيت محاضرة للدكتور شريف عسران،وللدكتور محيي الدين يوسف،وللبروفيسور كيوم، كما القى المستشرق لويس ماسينيون ، محاضرة في بناية المجمع بشارع الزهاوي وكذلك القى الاستاذ متي عقراوي محاضرة عن اليونسكو ، والقى الاستاذ منير القاضي محاضرة عن اسلوب القرآن الكريم ومفرداته ومحاضرة للدكتور هاشم الوتري عن الهيئة الصحية العالمية ، ومحاضرة عن الادب العراقي في العصر المغولي، القاها الدكتور رمضطفى جواد، وعن الفلسفة العربية في اوروبا القى الدكتور جواد علي محاضرة ممتعة اما المستشرق ج د اندرسون فقد القى محاضرة عن دراسة الشريعة الاسلامية ومن المحاضرين الاستاذ شيت نعمان عن العلوم الحديثة واللغة العربية والدكتور احمد سوسة عن ري العراق والعلامة الاثري عن الجغرافية عند المسلمين وكثير من الافاضل وغيرهم.

جوائز المجمع :

×جاء في نظام المجمع بانه يتوسل لتحقيق اغراضه باقامة مباريات في الموضوعات العلمية والادبية والاجتماعية ومنح الفائزين جوائز مالية فاعلن عن اولى مبارياته في المواضيع التالية:

١–التحديد في الادب العربي.
٢–اصلاح القرية العراقية.
٣–الحشرات والافات الزراعية في العراق.
٤–اجود كتاب مطبوع للفترة من ١٩٤٨ الى ١٩٤٩ ونشرت الدعوة في الصحف والاذاعة ففاز في (اصلاح القرية العراقية) كتاب الاستاذ جعفر الخياط وفاز بجائزة اجود كتاب، السيد عبد الرزاق الحسني عن كتابه (تاريخ العراق السياسي الحديث) وفاز كتاب الدكتور عبد العزيز الدوري (تاريخ العراق الاقتصادي في القن الرابع الهجري).

×المجمع حقق وطبع اثارا علمية جليلة، ولكنني اعتبر خريطة الشريف الادريسي التي ترجمها من اللاتينية الى العربية العلامة الاستاذ محمد بهجت الاثري والدكتور جواد علي وطبعاها بمطبعة مديرية المساحة من افضل انجازات المجمع، وكانت الطلبات تنهال عليه من مختلف بلدان العالم ، وكنت خلال رحلتي المتعددة الى اوروبا اشاهد هذه الخريطة تزين جدران المكتبات والمؤسسات العلمية فكانت بحق خير دعاية للعراق.

واعتبر كتاب (تاريخ العرب قبل الاسلام) لايقل اهمية ودعاية عن خريطة الادريسي وهناك ذكريات مضيئة اخرى.

رواد كبار فقدناهم:

×لقد توفي عدد كبير من اعضاء المجمع العلمي العراقي وبفقدهم خسرنا مصابيح مضيئة –عوضنا الله تعالى بمن يحل محلهم– وكان اول المتوفين من الاعضاء العاملين المرحوم شريف عسران ١٩٥٤ وبعده الاستاذ محيي الدين يوسف، ١٩٥٩ ومن الاعضاء المراسلين الشيخ محمد السماوي والدكتور علي مشرفة والاستاذ محمد كرد علي واحمد امين وخليل مردم بك، والدكتور منصور فهمي والدكتور عبد الوهاب عزام، ويعقوب سركيس ،اما الذين توفاهم الله بعد انتهاء عملي في المجمع فهم الشيخ محمد رضا الشبيبي والاستاذ منير القاضي والدكتور ناجي الاصيل والدكتور مصطفى جواد والدكتور هاشم الوتري والدكتور احمد سوسه والدكتور جواد علي والدكتور احمد ناجي القيسي والدكتور عبد الرزاق محيي الدين والدكتور جابر الشكري، والدكتور كامل حسن البصري كل هؤلاء من الذين اعرفهم ولعل هناك اعضاء لا اعرفهم غادروا الى الرفيق الاعلى ، رحمهم الله جميعا واسكنهم فسيح جناته وعوضنا عنهم بالصالحين.

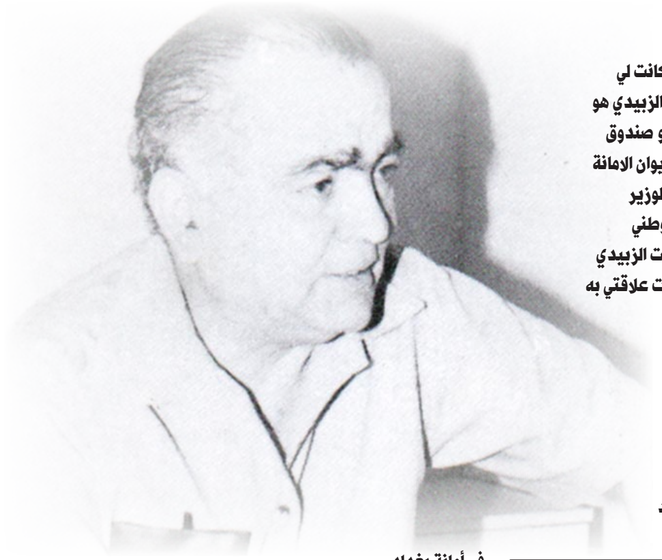

سمعت باسمه منذ وقت مبكر من حياتي ، ولعل ذلك قبل ان ادخل المدرسة الابتدائية ، وقد كانت لي دراجة هوائية صغيرة ، علمت ان صديقا لوالدي يعمل موظفا في امانة العاصمة يدعى فخري الزبيدي هو الذي قدمها هدية ، وعندما سألت والدتي بعد سنوات عن فخري هذا ، اجابت بسرعة انه (ابو صندوق السعادة) ... واتضح لي ايضا ان صلته بوالدي جاءت عن طريق جدي لامي ، وكان موظفا في ديوان الامانة و غرفته لا تبعد كثيرا عن غرفة الزبيدي الذي كان معجبا بالاستاذ محمد حديد السياسي والوزير السابق ، ولعل صلة والدي بالاستاذ حديد (كان والدي احد اعضاء الهيئة المؤسسة للحزب الوطني التقدمي الذي رأسه حديد بعد خلافه مع الاستاذ كامل الجادرجي سنة 1960) ، هي التي قربت الزبيدي من والدي . وعندما بدأت اللقاء بالزبيدي في اواخر الثمانينيات ، حدثني بما يشبه ذلك ،وزادت علاقتي به بعد ان جمعنا عشق بغداد وتاريخها .

لنتذكر فخري الزبيدي

رفعت عبد الرزاق محمد

بدأت شهرة فخري الزبيدي، عندما كان عضوا في فرقة الزبانية المسرحية عام ١٩٤٨ . غير انه نال شهرة عريضة في اوائل الستينيات ، مع برنامجه التلفزيوني الشهير (صندوق السعادة) وهو برنامج ترفيهي للمسابقات بين شرائح اجتماعية مختلفة تتخلله فقرات للمواهب وما الى ذلك ، ثم حاول احياءه في اوائل السبعينيات ببرنامج باسم (شايف خير) ، لم ينل شهرة الاول . ثم كان مشروعه الذي رأى النور وهو المتحف البغدادي ، وكان له الدور المشهود في وضع خططه واختيار مواده . وبعد تقاعده انصرف الى جمع ما كتب عن الموروث البغدادي في بطون الصحف والمجلات ، وأنجز عدة كتب في هذا ، منها تاريخ بغداد وقد نشربعض فصوله في مجلة (امانة بغداد) في السبعينيات ، وكتابه (بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤ ، الجامع من المفيد والظريف) الذي صدر جزءه الاول في اكثرمن خمسمئة صفحة .

ولد فخري رسول الزبيدي عام ١٩٢٥ ببغداد في محلة الحيدرخانة ، لاسرة نزحت من الكوت الى الحلة فبغداد ، تخرج في معهد الفنون الجميلة عام ١٩٤٧–١٩٤٨ فرع المسرح ،وبسبب متطلبات الحياة ولكي يحقق لنفسه استقلالا اقتصاديا فقد عمل موظفا في امانة العاصمة . ثم تدرج في وظيفته ، وعندما ارادت الامانة فتح مركز للاطفاء في مدينة الكاظمية عام ١٩٥٦ كان الزبيدي اول ضابط اطفاء فيها ، ويذكر المرحوم ابراهيم شندل المشهور بابراهيم اطفائية ، وهو اول عراقي يتولى ادارة الاطفاء في بغداد يوم كانت هذه الدائرة احدى دوائر امانة العاصمة ، انه سعى الى تعيين فخري الزبيدي في هذه الوظيفة ، غير ان فخري كثيرا ما كان ينقطع عن العمل ، وعندما كان يبحث عنه يجده مع صديق له يدعى ناظم الغزالي ، وهو ايضا احد موظفي الامانة ، وهما يتدربان على مسرحية او تمثيلية لفرقة الزبانية .

فخري الزبيدي في فرقة الزبانية

فرقة الزبانية

تأسست فرقة الزبانية عام ١٩٤٧ من مجموعة من الفنانين الهواة امثال حميد المحل وحامد الطرقجي وناظم الغزالي وفخري الزبيدي ومحمود قطان باشراف الفنان ناجي الراوي . اشتهرت الفرقة بما قدمته من اعمال مسرحية اذاعية في اواخر الاربعينيات ، لاسيما برنامج الجيش العراقي الذي كان يبث صبيحة كل يوم جمعة . كما شاركت الفرقة مع الوفد الفني الكبير الي قدم للجيش العراقي في الاردن عام ١٩٤٨ العديد من الاعمال الفنية والترفيهية . وقد مثل الزبيدي في اغلب ادواره الشاب الفكه والمشاكس !.

وقد ذكر الزبيدي مرارا انه هو الذي اكتشف ناظم الغزالي مطربا ، عندما كان الاخير يغني من مقام الركباني في احدى المسرحيات ...

واستمرت الفرقة لعدة سنوات ، وعندما اريد احياؤها في السنوات التالية قدمت للتلفزيون تمثيلية (شلتاغ) التي كتبها عبد الوهاب العزاوي واخرجها كمال عاكف ومثل فيها اضافة الى فرقة الزبانية الفنانون محمد القيسي وجميل الخاصكي وفوزية عارف وسواهم .

لقد بقي الزبيدي عاشقا للتمثيل منذ بواكير حياته ، ولعل مشاركته في اول فلم عراقي مصري مشترك عام ١٩٤٦ ،وهو فلم (القاهرة بغداد) من الشواهد الاولى لهذا العشق . ثم مثل بطولة اول فلم عراقي انتجته مصلحة السينما والمسرح عام ١٩٦٧ وهو فلم (شايف الاخير يغني من مقام الركباني في احدى المسرحيات ...

واستمرت الفرقة لعدة سنوات ، وعندما اريد احياؤها في السنوات التالية قدمت للتلفزيون تمثيلية (شلتاغ) التي كتبها عبد الوهاب العزاوي واخرجها كمال عاكف ومثل فيها اضافة الى فرقة الزبانية الفنانون محمد القيسي وجميل الخاصكي وفوزية عارف وسواهم .

لقد بقي الزبيدي عاشقا للتمثيل منذ بواكير حياته ، ولعل مشاركته في اول فلم عراقي مصري مشترك عام ١٩٤٦ ،وهو فلم (القاهرة بغداد) من الشواهد الاولى لهذا العشق . ثم مثل بطولة اول فلم عراقي انتجته مصلحة السينما والمسرح عام ١٩٦٧ وهو فلم (شايف خير) ، لم ينل شهرة الاول . ثم كان مشروعه الذي رأى النور وهو المتحف البغدادي ، وكان له الدور المشهود في وضع خططه واختيار مواده . وبعد تقاعده انصرف الى جمع ما كتب عن الموروث البغدادي في بطون الصحف والمجلات ، وأنجز عدة كتب في هذا ، منها تاريخ بغداد وقد نشربعض فصوله في مجلة (امانة بغداد) في السبعينيات ، وكتابه (بغداد من ١٩٠٠ حتى سنة ١٩٣٤ ، الجامع من المفيد والظريف) الذي صدر جزءه الاول في اكثرمن خمسمئة صفحة .

ولد فخري رسول الزبيدي عام ١٩٢٥ ببغداد في محلة الحيدرخانة ، لاسرة نزحت من الكوت الى الحلة فبغداد ، تخرج في معهد الفنون الجميلة عام ١٩٤٧–١٩٤٨ فرع المسرح ،وبسبب متطلبات الحياة ولكي يحقق لنفسه استقلالا اقتصاديا فقد عمل موظفا في امانة العاصمة . ثم تدرج في وظيفته ، وعندما ارادت الامانة فتح مركز للاطفاء في مدينة الكاظمية عام ١٩٥٦ كان الزبيدي اول ضابط اطفاء فيها ، ويذكر المرحوم ابراهيم شندل المشهور بابراهيم اطفائية ، وهو اول عراقي يتولى ادارة الاطفاء في بغداد يوم كانت هذه الدائرة احدى دوائر امانة العاصمة ، انه سعى الى تعيين فخري الزبيدي في هذه الوظيفة ، غير ان فخري كثيرا ما كان ينقطع عن العمل ، وعندما كان يبحث عنه يجده مع صديق له يدعى ناظم الغزالي ، وهو ايضا احد موظفي الامانة ، وهما يتدربان على مسرحية او تمثيلية لفرقة الزبانية .

في أمانة بغداد

بقي فخري الزبيدي موظفا في امانة العاصمة الى تقاعده في اوائل الثمانينيات . وفي اثناء عمله هذا عمل على تاسيس المتحف البغدادي عام ١٩٧٠ على عهد امين العاصمة اسماعيل محمد ، وتنفيذ مشروع(البانوراما) في منطقة المدائن ويمثل تاريخ الفتح الاسلامي للعراق ، والاشراف على تطوير متنزه الزوراء ، وتماثيل المشاهير في ساحات بغداد وحدائقها .يقول : لقد فكرت بانه لابد ان تزين ساحات بغداد بلد الشعر والجمال تماثيل تحكي تاريخها واعلامها ، وقررت ان ابدأ بأهم رموز الشعر ، الرصافي عن مسابقة بأهم رموز الشعر ، الرصافي والزهاوي والكاظمي والكرخي ،وقد فاز الفنان اسماعيل فتاح الترك بثلاثة نماذج مقدمة ، اثار ذلك مشكلة كبيرة الا انه تقرر انشاء تمثالي الرصافي والكاظمي ولم ينفذ تمثالي الزهاوي والكرخي الى اليوم .

الوجه التلفزيوني

بعد ثورة تموز ١٩٥٨ قررت امانة العاصمة ان تنشىء دائرة مختصة بالعلاقات والاعمال الصحفية ، وعين فخري الزبيدي مسؤولا عنها بدرجة ملاحظ ارشاد . فشارك لاول مرة في التلفزيون ممثلا عن امانة العاصمة في برنامج (اسبوع النظافة) الذي تشرف عليه وزارة الصحة ، ولم يدري الزبيدي ان هذا البرنامج فاتحة لنشاطه التلفزيوني الي اشتهر بين الناس ، اذ اعجب به بعض مسؤولي التلفزيون يومذاك ، فطلبوا منه تقديم بعض البرامج المنوعة ، فاقترح عليهم تقديم برنامج مسابقات ثقافية وترفيهية باسم (صندوق السعادة) ، وهكذا ظهر البرنامج الذي اخرجه فالح الصوفي الى الناس واشتهر كثيرا بين مختلف طبقات الشعب العراقي ولم ينافسه أي من برامج التلفزيون الاخرى . استمر صندوق السعادة الى احتجابه عام ١٩٦٣ ويذكر الزبيدي انه تقاضى اول اجر عن البرنامج وكان خمسة دنانير عن ثلاث ساعات هي فترة عرض البرنامج .

وفي الاذاعة فقد دخلها عن طريق كتابة التمثيليات الاذاعية الساخرة والتوجيهية ثم البرنامج الترفيهي عن القوات المسلحة الذي كان يقدم صباح كل يوم جمعة ويتقاضى عنه دينارا ونصف !!

وفي عام ١٩٧٠ ، اتفقت دائرة الاذاعة والتلفزيون مع فخري الزبيدي على احياء برنامج (صندوق السعادة) ، باسم جديد هو (شايف خير) ، فقدم واستقطب الكثير من المشاهدين لبراعة الزبيدي وسرعة البديهة لديه ... لكن البرنامج لم يعمر طويلا ، وكان اخر العهد بالزبيدي مع التلفزيون ولم يظهر الا بعد سنوات في لقاء معه .

مشاريع ثقافية وفنية

وبعد احالته الى التقاعد ، قرر الزبيدي انجاز ما كان يطمح اليه من مشاريع ثقافية ، ومنها الكتابات التاريخية عن بغداد ،وقد بدأ نشر بعض من هذا في مجلة (امانة العاصمة) في اواخر السبعينيات ، وهو مقدمته التاريخية عن الخدمات البلدية في بغداد منذ تاسيس الدوائر البلدية الى تطور امانة العاصمة . وقد ذكر انه بذل جهودا كبيرة في التحري والاستقصاء والبحث عما سماه (الضائع والمجهول) من تراث بغداد. وفي عام ١٩٨٥ اخبرني ان كتابه الكبير عن بغداد هوموسوعة باخبارها ، واكد لي انه بدأ يوم ٢٠ كانون الاول ١٩٨٢ بجمع الوثائق والاخبار عن المراحل التي قطعتها امانة بغداد منذ تاسيسها في عهد الوالي مدحت باشا حتة يومها هذا . وباشر بتقصي الحقائق والمعلومات عنها من الكتب التاريخية ومن الصحف والمجلات القديمة والحديثة والاضابير والملفات والتقارير الرسمية ، علاوة على ماسمعه من افواه المعمرين من ذكريات .

ومن وحي ذلك انجز كتابة عدد من المسرحيات التاريخية، منها المسرحية التي اخرجها الفنان مقداد مسلم (صايرة ودايرة في بغداد عام ١٨٨٥) . وصدر له كتاب (هرون الرشيد) والجزء الاول من كتابه (بغداد من سنة ١٩٠٠ الى سنة ١٩٣٤، الجامع من المفيد والظريف)

في السنوات الاخيرة من حياته ، اصطلحت عليه الامراض المختلفة ، وكان يعاني كثيرا من الالام الحادة لامراض المفاصل . وكنت وانا التقي به عند مكتبة السيد نعيم الشطري في شارع المتنبي ، احرضه على انجاز كتابه الكبير عن بغداد وقال انه في سبعة اجزاء (اين هي الان ؟) ، وان له كتابا عن الكلمات الدخيلة في اللهجة البغدادية ، وعمل درامي واسع عن الفنان الكبير ناظم الغزالي .

وفي ربيع عام ١٩٩٩ ، اتصل بي احد الاصدقاء ليعزيني بوفاة فخري الزبيدي . وكانت الفجيعة برحيله جسيمة في تلك الايام العجاف التي كنا بامس الحاجة الى بسمة وطرافة الزبيدي . فلنتذكر فخري الزبيدي ، ونسعى لاحياء ذكره !!

الشيخ المرحوم عبود الهيمص شيخ عشائر البوعيس - البوسلطان وهو احدى شخصيات العهد الملكي وقد عاصراحداثاً ورجالا في مختلف العهود، العهد العثماني، عهدي الاحتلال والانتداب، العهد الملكي والعهد الجمهوري وقد تسنى لي الاتصال عن قرب باكثر رجالات الدولة وبعض رؤسائها وقادتها، في مذكراته التي نشرت في بيروت قبل سنوات يتناول هذا السياسي الراحل بعض رجالات الحكم الذين ارتبط معهم بعلاقات شخصية . ذاكرة عراقية تجتزئ صفحات من هذه المذكرات لما فيها من حوادث مهمه في تاريخ العراق المعاصر

من مذكرات الشيخ عبود الهيمص

عندما اصدر ياسين الهاشمي مرسوما لصيانة العائلة المالكة

الملك غازي

نصب الامير غازي ملكاً على عرش العراق بعدوفاة والده فيصل الاول في ١٩٣٣/٩/٨ وكان شاباً قليل التجربة احاطت به زمرة من رفقاء السوء، فانصرف الى اللهو من دون مراعاة لمقامه كملك، فكان موضع نقد وتجريح من قبل افراد العائلة المالكة ومن رجال السياسة من العراقيين المخلصين الحريصين على مصلحة البلاد وسمعة العائلة المالكة ، ومما اضطر رئيس الوزراء ياسين الهاشمي الى اصدار مرسوم الاسرة المالكة رقم ٧٥ لسنة ١٩٦٣ لصيانة العائلة المالكة مما يسيء الى سمعتها.

وكان قد بلغني في حينه ان الملكة عالية- زوج الملك غازي- قد اشتكت من تصرفات زوجها الى السيد محمد الصدر بصفته من المخلصين للعرش والموالين للبيت الهاشمي ونظراً لمكانة السيد الصدر الدينية والاجتماعية والسياسية يضاف الى ذلك كبر سنه وتجاربه في الحياة، فهو استناداً الى هذه الصفات والمزايا يستطيع ان يؤثر على الملك الشاب ويحمله على الكف عن ممارسة بعض الاعمال والتصرفات وبالرغم من الجهود التي بذلت في هذا المجال، فلم تسفر الى اية نتيجة مرضية، بل كانت موضع غضب رجال السياسة وفي مقدمتهم ياسين الهاشمي، وخيبة أمالهم.

لقد انتهز خصوم الوزارة الهاشمية هذا الجو المضطرب فعملوا على زرع الشكوك بين الملك غازي وياسين الهاشمي وتعميق الهوة بينهما، مما جعل الملك غازي يضمر النقمة والحقد على الهاشمي ووزارته، ومما زاد في هذه النقمة اضافة الى صدور المرسوم الذي اشرنا اليه سابقاً، قرار الحكومة بابعاد سائق الملك الخاص الى شمال العراق لاعتقاد المسؤولين بان هذا السائق كان السبب في حصول بعض الامور التي تلحق الضرر بسمعة العرش وصاحب العرش.

وهنا أود ان اذكر امانة للتاريخ ان للملك غازي من جراء تفاقم المشكلات العامة امامه، وانصرافه الى شؤونه الشخصية، ادى الى اهمال شؤون بيته وافراد عائلته مما اضطر الحكومة الى تخصيص احدى الدور التابعة لمديرية السكك الحديد العامة في منطقة الصالحية لايواء شقيقتيه الاميرتين، وقد ترتب على هذا الامر ضرورة رصد مبلغ ثلاثة آلاف دينار في ميزانية عام ١٩٣٦ المالية، لتأمين معيشتهما، ولما كان ذلك يتطلب موافقة المجلس النيابي، فقد عرضت الفقرة الخاصة بارصاد هذا المبلغ عند مناقشة الميزانية في المجلس النيابي من قبل لجنة الميزانية في المجلس المذكور، وبناء على ذلك ولكوني عضوا في هذا المجلس كانت اللجنة مؤلفة من السادة: حامد النقيب، سليمان فيضي، عبد المهدي المنتفكي، ومحمد علي محمود. اما سكرتير اللجنة فكان ابراهيم رحيم.

جرت المناقشة، التي حضرها كل من وزير المالية السيد رؤوف البحراني ووزير الاشغال والمواصلات محمد امين زكي، وقد اعترضوا على المخصصات المرصدة لاعاشة الاميرات اعضاء اللجنة ورفضوا الموافقة عليها لدواع، منها ان الملك ملزم شرعاً باعالة شقيقاته ولا يجوز فتح باب لتخصيص مبالغ اضافية لاعالة بعض افراد العائلة المالكة ولما تأزم الموقف اضطر السادة الوزراء الذين حضروا جلسات اللجنة المالية الى الاتصال هاتفياً برئيس الوزراء السيد ياسين الهاشمي طالبين منه الحضور انقاذاً للموقف، ولم يلبث الهاشمي ان حضر بعد دقائق، حيث كانت داره قريبة ومجاورة لبناية المجلس النيابي عرض عليه الوزراء ما دار من نقاش في اللجنة ورفضها الموافقة على هذه التخصيصات فرد الهاشمي قائلاً: "ان ما قاله الاخوان وذهبوا اليه هو الصحيح من النواحي الشرعية والقانونية والاجتماعية ولكن: يا اخوان، ان لكل امر من الامور عدة وجوه فالوجهة التي ذكرتموها لا غبار عليها، ولكن دعونا ننظر الى هذه القضية من الوجه الثاني، وهو ان جلالة الملك غازي عليه التزامات وواجبات جعلته يضطر الى ترك شقيقاته الاميرات واهمال رعايته لهن وهن بنات الملك فيصل الاول مؤسس الدولة العراقية ومن سلالة اشراف مكة المتفق بالاجماع على انتسابهم الى الرسول (ص) فهل تقبل غيرتكم وشرفكم ان نتركهن على هذه الحال؟ ولهذا ارجو اعادة النظر في الامر والموافقة على تخصيص المبلغ. ولم ير اعضاء اللجنة ازاء هذه الحقائق

حفل زواج الاميرة بديعة ابنة الملك علي والشريف حسين بن علي في امانة بغداد عام ١٩٥٠

حسين على وشك السفر الى خارج العراق. وبعد ان تناولا القهوة ذهبا لزيارة احد الاصدقاء من العراقيين وبعد نحو الساعة من انصرافهما اتصل الشريف حسين بي هاتفياً وقال اننا مدعوون الى وليمة عشاء في دار صديقنا العراقي يقيمها بمناسبة قرب سفري الى الخارج فارجو ان تحضر هذه الوليمة، فاعتذرت لانني لم اتلق دعوة بذلك، وبعد هنيهة اتصل بي صاحب الدعوة ورجاني بالحضور، لان الدعوة كانت مستعجلة وتقتصر على عدد محدود من اصدقاء الشريف حسين. فقبلت الدعوة شاكراً.

وقد فوجئنا بحضور السفير البريطاني السير مايكل رايت وبصحبته مستشار السفارة البريطانية المستر بومنت- الذي عين سفيراً في العراق فيما بعد- وقد دارت احاديث شتى كان من بينها الاشاعات التي كانت تدور في الاوساط عن قبول الوصي عبد الاله للرشوة، وكان كل من السفير البريطاني والمستشار يستفسران عن مدى صحة ذلك، وقد ربطت بين اقوال السفير واقوال الموظف البريطاني (فول).

حدثني الشيخ علي الشرقي مرة عن حساسية الوصي عبد الاله وخشيته من لقاء أي مسؤول بريطاني، ولو كان الوصي يعلم بلقاء الشريف حسين والسفير البريطاني لاقام الدنيا واقعدها لان الشك والريبة هما الظاهرة المتبادلة بين الوصي من جهة والسفارة البريطانية من جهة اخرى ويمكن للمرء المواكب للاحداث ان يجد اكثر من دليل على شعور المسؤولين بان حكمهم آيل الى الانهدام ومائل الى الغروب!

وبالرغم من ان المجالس النيابية الاخيرة التي سبقت انهيار الحكم الملكي بقليل كانت من مجالس (التزكية) التي يطمئن نوري السعد لها فقد ظهر ان (دار السيد لم تكن مامونة) بالنسبة له فقد لوحظ وجود تكتلات ضيقة بين بعض النواب تدل على التحول مع الرياح التي قد تكون غير ملائمة لنوري السعيد.

فان حل المجلس الذي اجرى انتخابه ارشد العمري لضمان اكثرية كبيرة مؤيدة للوصي وضغط الانكليز عليه بفعل تهويلات نوري السعيد لمخاطبة المجلس الجديد المنتخب ترك غضاضة في نفس الوصي ولكن ما الذي يفعله بعد ان فرض عليه حل المجلس وانتخاب مجلس جديد عزز من نفوذ نوري السعيد لدى الانكليز والمجلس على حد سواء.

والحقيقة ان بعض النواب كانوا يتلقون ايعازات لمعارضة مشاريع نوري السعيد في الفترات التي يتضايق فيها الوصي من استمرار حكمه، او حصول خلاف معه فكان بعض موظفي البلاط يتلقون هذه الايعازات ولكن لا يعرف هل انها صادرة عن الوصي بالذات او من بعض حاشيته الكبار او من جهات اخرى والذي ظهرت بوادره منها قيام معارضة جزئية مفتعلة ضد نوري السعيد محسوسة في اوساط ضيقة وانكر يوماً كنت في البلاد واذا بالامير عبد الاله يمسك سترتي بشكل عصبي عنيف ويقول: يا شيخ عبود اكاد انفجر من الغيض وكررها ثلاث مرات فقلت له لماذا يا سمو الامير؟ قال لقد بلانا الله بنوري السعيد انه يريد ترقية عدد من الضباط بدون استحقاق، فهونت عليه الامر وقلت له ان مثل هذه الامور تحل بالتفاهم ونوري يعتبر نفسه من مؤسسي الجيش والحريصين على كيانه، وقد كرر تذمره من تصرفات نوري السعيد وكنت اهون عليه فترة يهدأ وتارة يظهر الانزعاج والالم.

وكان السائد يومذاك ان بعض كبار الضباط احيلوا على التقاعد لاحلال اخرين بلدهم محسوبين على الوصي او على السعيد اذكر منهم (غازي الداغستاني) و(محمد رفيق عارف) ولهذا فاني لم اقدر بالضبط من هم الضباط الذي عناهم الوصي بكلامه، ولم يكن عبد الاله من الذين يستطيعون اخفاء حقده على خصومه المتربصين به والذين يشعر بمعاداتهم له، واني لا اذكر انه كان يجاهر بانه من الحاقدين، فقد سمعت منه في احدى المرات التي زارنا في الشوملي وجرى ذكر بعض الاوضاع قوله: "ان الحقد يكون واجباً في بعض الاحيان" فقلت له: هذا رأي ولكن الشاعر يقول: لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب ولا ينال العلى من طبعه الغضب

ولكن يبدو انه اخذ هذا على انه من اقوال الشعراء ممن لا يصلحون للحكم!!

نوري السعيد

كان نوري السعيد موصوفاً بالفطنة، وفي هذه الحادثة التي نذكرها دليل على ذلك كثيراً ما كان الشيخ احمد الداود يلوح على الدوام ويعرب عن مطامحه في الاستيزار كوزير لاحدى الوزارات، فكان يتبادل مع نوري السعيد بعض الكلمات والعبارات من باب (رب اشارة ابلغ من عبارة!!) اما امام اصدقائه المقربين فكان يجاهر بهذه الرغبة وهل انه لا يستحق منصب الوزارة؟

وكان نوري السعيد يتعمد الاهمال وغض النظر، الى ان بلغ الضيق به يوما من الحاح الشيخ احمد الداود فخاطبه بكلمات مرددا المثل الشعبي: "تموتين ما البسك خزامة" فوصل الخبر الى زوجة الشيخ احمد الداود ام سلمان فاغتاظت وبلغ بها الغضب حداً لا يوصف واخذت تتحين الفرص للرد على الباشا –نوري السعيد– وقد واتتها فرصة ثمينة في احدى حفلات سباقات الخيل التي كانت تجري في بغداد وقد حضرها نوري السعيد مصطحباً مع عدد من المصحفيين العرب.

وبينما كانوا مستغرقين في مشاهدة سوابق الخيل تقدمت السيدة ام سلمان الى نوري السعيد قائلة: "انت مقبل على بيع العراق"!! وكانت تقصد بذلك اصراره على عقد معاهدة سنة ١٩٣٠ مع بريطانيا غير ان نوري السعيد تخلص من الاحراج امام الصحفيين العرب فالتفت اليهم مبتسما وقال "انها امراة مسكينة مختلة العقل" واخذ يلاطفها ويربت على كتفها قائلاً لها: ان كل شيء سيكون على ما يرام!!

فصل من كتاب مذكرات

الشيخ عبود الهيمص

فوجئنا بحضور السفير البريطاني السير مايكل رايت وبصحبته مستشار السفارة البريطانية المستر بومنت- الذي عين سفيراً في العراق فيما بعد- وقد دارت احاديث شتى كان من بينها الاشاعات التي كانت تدور في الاوساط عن قبول الوصي عبد الاله للرشوة، وكان كل من السفير البريطاني والمستشار يستفسران عن مدى صحة ذلك، وقد ربطت بين اقوال السفير واقوال الموظف البريطاني (فول).

زوج الاميرة بديعة

وقد صادف ان زارني في داري الشريف حسين وكان بصحبته احد موظفي السفارة البريطانية من ذوي الاتصال الشخصي الوثيق مع الساسة العراقيين، كان الشريف التي طرحها السيد الهاشمي الا الموافقة.

هذه الامور وغيرها ومحاولة الوزارة الهاشمية الحد من تصرفات الملك غازي وتصرفات الحاشية السيئة المحيطة به وانتهاز بعض العناصر المتربصة ادت الى الانقلاب الذي قاده الفريق بكر صدقي يوم ١٩٣٦/١٠/٢٩ واسقاط وزارة ياسين الهاشمي الثانية وبالرغم من كل ما قيل فقد كان الملك غازي ذا نزعات وطنية وطموحات قومية كانت موضع سخط وغضب السلطات الاستعمارية ورجال السفارة البريطانية التي ساعدت على ترويج الاشاعات والتلفيقات ضد الملك غازي.

الامير عبد الاله

في احد الايام من شهر مايس سنة ١٩٥٨ زارني في داري في محلة السعدون السيد محسن ابو طبيخ والسيد محمد صادق الصدر من اعضاء مجلس الاعيان وهي زيارة اعتيادية وفي الساعة الخامسة في عصر ذلك اليوم فوجئنا بزيارة (المستر فول) المستشار في السفارة البريطانية ببغداد فاستغربت جداً من زيارته المفاجئة هذه دون ان يسبق ذلك اتصال هاتفي حسب الاصول وبعد مجاملات مختصرة انصرف السيدان محسن ابو طبيخ ومحمد صادق الصدر لتصورهما ان لدى الزائر الجديد موضوعاً خاصاً قد يتعذر عليه البحث فيه بوجودهما: وبعد مغادرة هذين الضيفين قال المستر فول: "بلغ المسؤولين في السفارة ان الوصي ياخذ الرشوة ممن يعينهم اعضاء في مجلس الاعيان او النواب، وقد طلب الي اركان السفارة التحري عن حقيقة ذلك".

وقد كانت مفاتحة هذا الرجل لي بهذا الموضوع مفاجأة، فابديت استغرابي من هذا السؤال الخطر الغريب فقلت له: ان موضوع الرشوة لا يستطيع ان يثبته احد لان القوانين العقابية في بلدنا (الراشي) و(المرتشي) و(الوسيط) يعدون مجرمين ويعاقبون جميعاً على جريمة الرشوة، ولهذا فلا يخبراحد عن الرشوة لانه يعتبر شريكا في الجريمة وفي ظني ورأيي الشخصي ان الوصي لا يأخذ الرشوة ولكن ربما يقع ذلك في مناسبة زواج او مناسبة رسمية عند قبوله بعض الهدايا من الخاصة وهذا مجرد ظن واحتمال وانا لم اطلع على شيء من ذلك ابدا فقال مستر فول: ان لدينا معلومات اكيدة عن ذلك فقلت اذا لماذا استشرتني بالذات؟

قال: اردت ان اتاكد، فقلت له لا علم لي بذلك ابداً.

فاجاب: بانكم لا تعلمون ان الامور العامة قد اصبحت على درجة من السوء الى الحد الذي يقال "ان النار تلتهب تحت الطابوق وسوف تستيقظون على صوت الانفجار الهائل فقلت له لا اظن ذلك ولا اظن ان الامور وصلت الى هذه الدرجة فاكد انها واصلة الى هذه الدرجة وان لديهم معلومات عن ذلك فقلت اذن لم لا تنصحون الحكومة او البلاط لتفادي وقوع الانفجار فاجاب ان الحكومة والبلاد متجهان اتجاهات اخرى ولا يسمعون رأينا واستشاراتنا. وكرر القول انكم عن قرب سوف ترون الانفجار الهائل، وودعني وانصرف اني لم اصدق في حينه ما قاله المستر فول فقد استكثرت ان الانكليز يتصرفون بهذا الشكل تجاه سلوك وتصرفات الوصي. هذا ما جرى فعلاً وان ربط الاحداث ببعضها يمكن ان يلقي بعض التفاسير للوقائع والاحداث التي حصلت بعد ذلك.

في تقرير امريكي

رجل قصير القامة ممتلئ الجثة أنيق يرتدي بدلة غامقة من قماش الغابردين

نوري السعيد أكبر السياسيين العرب.. حسم تحالفه مع الغرب مبكراً

ترجمة: سناء عبد الله

نوري السعيد وسط اعضاء حكومته

ترجل، بكل رشاقة من طائرة فيكرس فيسكاونت، رجل قصير القامة، ممتلئ الجثة، انيق، يرتدي بدلة غامقة من قماش الغابردين.

إنه نوري السعيد، الذي شغل منصب رئيس وزراء العراق ١٣ مرة. تحركت شفتاه قليلا، فيما ألقت سهام عينيه نظراتها في جميع الاتجاهات وكأنه لا يريد أن يفقد أيا من التفاصيل حوله، وبدا في حالة يكاد فيها أن يتذوق حلاوة تلك المناسبة السعيدة.

كان نوري العائد توه من كراچي، رجلا قد تعافى من أزمة قناة السويس، إذ كان الزعيم العربي الوحيد الذي تحالف رسميا مع الغرب، فوجد نفسه معزولا خلال شهر تشرين الأول/أكتوبر الماضي عندما هاجمت حليفته الرئيسية، بريطانيا، (بشكل متزامن مع الاسرائيليين المكروهين) أكبر شخصية سياسية لدى العرب.

وفي غضون ذلك، وسط غليان المشاعر القومية، بدا وكأن نوري، وليس الرئيس المصري جمال عبد الناصر، من سيتعرض للسقوط. أما الآن فان على عبد الناصر أن يخشى العزلة، إذ صار نوري في القمة، وبوسعه أن يرى حجم النصر الذي حققه. وفي ساعة انتصاره هذه، أعلن استقالته. في الواقع، ختمت استقالة نوري السعيد على نهاية ولاية أخرى لرئيس الوزراء في منصبه كانت الأطول من بين الولايات التي ترأس فيها الحكومة العراقية ذلك الرجل القوي والمتمرس (٣٤ شهرا). وحتى في حالة تخليه عن السلطة، يبقى نوري الشخصية المهيمنة في العراق. بيدَ أنه يعرف بأن الملك الصبي، فيصل الثاني، الذي يتربع على عرش العراق سيطلب منه تشكيل الحكومة ثانية، وسوف تكون لدى نوري فرصة لتشكيل حكومة جديدة، بمجلس وزراء موسع، داخل الحكومة أو خارجها، فأن نوري، السياسي الحاذق، البالغ من العمر حاليا ٦٨ عاما بعد أكبر السياسيين العرب في الشرق الأوسط، وهو أكثر سياسيي الشرق الأوسط مناصرة للغرب. إن البلاد التي يحكمها نوري، وهي المنطقة التي تقع تقليديا بين نهري دجلة والفرات، تشابه في مساحتها ولاية كاليفورنيا. كانت قد سميت منذ حقبات طويلة ببلاد ما بين النهرين، إنه العراق، الغني بالنفط ينخض عنه اليوم غبارا تراكم عليه عبر قرون عديدة. يتنافس في الوقت الحاضر كل من نوري وعبد الناصر على الزعامة العربية، غير أن العداء بين شعبي وادبي الفرات والنيل، بالحقيقة، قديم قدم الحضارة التي بزغت، أول ما بزغت، في واديهما. ففي ذلك الحين، بسطت حضارتان متنافستان من بابل وطيبة نفوذهما في تلك الأراضي الممتدة، أرض الكتاب المقدس.

وفيما كان التنافس بين هاتين الحضارتين بين مد وجزر، يستعر تارة ويخمد تارة أخرى، وجد بنو إسرائيل وسواهم من المجايدين أنفسهم، تحت عبودية المصريين تارة، أو أسرى، تارة أخرى، على يد البابليين.

ورغم أن وجوه العراقيين والمصريين المعاصرة اليوم تبدي تشابها مذهلا للصورة التقليدية للأثار القديمة المحيطة بهم، فلم يعد بوسع أي من البلدين أن يزعم بأن له صلة بتلك الهوية القديمة.

العراق أقدر العرب

الحقيقة، فان التنافس القائم اليوم على الزعامة العربية غير متكافئ من أوجه عدة، فبعد نحو أربعة قرون من الإهمال وسوء الإدارة العثمانية، لا يبلغ عدد نفوس العراق أكثر من ٦ ملايين نسمة، فيما يبلغ عدد سكان مصر أكثر من ٢٢ مليون نسمة. وفيما تعد مصر بلدا متوسطيا، بتاريخ طويل من النفوذ الغربي، فان العراق يجد نفسه مشدودا بقوة إلى ماضيه القبلي.

بيدَ أن العراق يمتلك وحدته الجغرافية، ووادي نهره العظيم، بعد ثلاثة أجيال من حكم ملكي صنعه البريطانيون، ومؤسساته السياسية والاقتصادية. ولكن، الأهم من هذا وذاك، فالعراق يمتلك النفط. فمن بين البلدان العربية، تفتقر مصر وسوريا إلى الثروة التي يصنعها النفط، أما السعودية ومشايخ الخليج، فهي تفتقر إلى الاقتصاد القادر على استيعاب الثروة النفطية. العراق، لوحده، من بين جميع البلدان العربية، يمتلك الأمرين، حيث انطلق بفضل ملكيته النفطية في برنامج نمو اقتصادي طموح من شأنه تغيير التوازنات السياسية في المنطقة.

رجل دولة كبير

في أجزاء واسعة من العالم حيث يشتهر إطلاق لقب الباشا العثماني القديم على مختلف الرجال من الجنرالات والمحسوبين على الخلافة، فان العراقيين بمفردهم عندما يطلقون كلمة "الباشا" فانهم لا يقصدون فيها إلا رجلا واحدا. يخاف العراقيون من الباشا ويحترمونه ويقفون رهبة له، ولكنهم لا يحبونه، ورغم أنه يدير شؤون بلادهم قبل مولد العديد من منهم، فان قلة من العراقيين يعرفونه كمخلوق بشري. يدير نوري السعيد أمورهم كدكتاتور، دون أي اكتراث لوجهة نظرهم والتي تكاد أن تصل إلى حد الازدراء. ينكب نوري على مكتبه، المليء بالملفات والأوراق، بأذنيه الكبيرتين وحاجبيه الكثيفين، حيث يبدو وكأنه دب رمادي اللون. ويسأم نوري من الحركة، ويشعر سريعا بالملل، ولا يظهر أية رغبة بابداء الاهتمام بالاخرين حتى إن كان ذلك ضربا من ضروب إيجاد موقع دفاعي أفضل.

يقول نوري: "أوقف العقيد التمرين وألقى بعد ذلك محاضرة على الطلبة استغرقت ساعتين ونصف. قال العقيد أن التحصينات العسكرية دائما قديمة. إنك حتى وإن حصنت المدينة اليوم بأحدث الوسائل، فستصبح غدا قديمة بسبب الأسلحة الجديدة والأساليب الحربية الحديثة. قال لنا أن الروح الحقيقية للقائد العسكري تكمن في انجاز المهمة في ضوء الموارد المتاحة. إن مهمة القائد العسكري تكمن في استخدام عقله وطاقته بما هو متاح بين يديه، حتى إن سقطت المدينة في غضون نصف ساعة، وسيق بعدها إلى محكمة عسكرية واعدم رميا بالرصاص."

يضيف نوري قائلا بصوته الجهوري الأجش أن تلك الحادثة "منحتني الحكمة التي يتعين عليّ أن أمضي بهديها طيلة حياتي–أن أكون واقعيا، وليس مثاليا. يريد نقادي دائما الشيء المثالي. إذا ما تحقق كل شيء في ضوء ما تريده، فما هي فائدة القدرة؟ هذه هي عقيدتي: لا تكن مثاليا على الإطلاق، استخدم ما هو متاح، لا تنتظر حتى يصبح كل شيء مثالي وتفوتك الفرصة."

التحرر ممن؟: رغم العديد من الرحلات إلى بريطانيا وعلاقة تعاون وثيقة مع البريطانيين، فان قدرة الباشا على التحدث باللغة الانكليزية بالكاد كافية. ولا يعد الباشا خطيبا متفوها في اللغة التركية، أو الألمانية، أو حتى بلغته العربية. يضرب علي ركبته، ويؤشر بيديه فيما يحاول تجميع كلماته متلمسا بغيته في الحديث ليقول: "الوحدة العربية والتقدم، يكمنان في رؤية الجامعات هنا، والثروة، وردم الفجوة بين العرب والشعوب المتقدمة. كان هناك قدر من التقدم منذ طفولتي، سيما خلال السنوات العشر أو الخمسة عشر الأخيرة، غير أن الفجوة مازالت سحيقة. سوف يستغرق ردم الفجوة جيلا كاملا. لا اعتقد أن علي أي زعيم عربي أن يبادر بتغييرات ثورية.

لا يمكن تحقيق التغيير في حياة وعقول الناس بصورة سريعة. ليس بوسعك أن تحقن طفلا يبلغ من العمر يومين بمصل لتجعل عمره عشر سنوات. حتى وإن نجحت علي نحو ما، لن يكون الطفل طبيعيا أبدا. علينا دائما أن نحسب الحاجة الى الوقت اللازم في كل شيء."

نوري، الواقعي علي نحو مزعج، يرمي جانبا شعارات ناصرية براقة مثل "الحياد الإيجابي" التي من الممكن أن تكسبه شعبية عابرة. يقول نوري: "سوف يلعنني التاريخ إن خاطبت عواطف الجماهير على حساب المصلحة الوطنية. إن الحياد بالنسبة لبلد صغير مثل العراق قد يكون كارثيا. العراق غير قادر على وقف الشرق أو الغرب عسكريا، وغير قادر على استثمار نفطه بنفسه. إذا ما حاولنا أن نصبح محايدين، سوف يبقي نفطنا داخل الأرض، وسينتشر الفقر فوق الأرض، وسوف تنتصر الشيوعية." إن بدت هذه الكلمات قوية في العالم العربي هذا اليوم، فهي صادرة عن رجل قوي برز أخيرا وهو بأقوى وضع يمكن أن يكون عليه طيلة حياته.

نوري السعيد في حفلة السفارة المصرية

نوري السعيد مع رئيس وزراء تركيا

ذكريات بغدادية ..

المناسبات والاعياد اليومية في بغداد ايام زمان

كانت (البيتونة) فوق سطح المنزل مأوى شيقا للاطفال في العابهم. و(البيتونة) تشبه الحجرة، كانت توضع فيها أغطية ولوازم النوم في الصباح ثم يخرجونها بعد الغروب، قطعة قطعة ويفرشونها للنوم. وكانت مكانا نموذجيا لاختباء الاطفال عندما يمارسون لعبة (العسكر والحرامية) او (الجمدان) وهي من ألعاب التخفي ايضا؛ ولابد ان البغداديين القدامى يتذكرون (البادكير) وهو فتحة في بناء المنزل فوق السطح، ويعتبر "مكيفا" طبيعيا، بدائيا، يسحب الهواء المعتدل المنعش الى غرف المنزل بطريقة تلقائية! اما شطر فاكية (الركي) الى قسمين ووضعهما عند الغروب فوق-الطوفة- فقد كان يؤدي بعد فترة من الوقت الى تثليج شطري (الركي) وكأنهما وضعا في مجمدة حديثة! كان (ركي) الموصل الهائل الحجم، و(ركي) سامراء الحلو المذاق، من اشهر وألذ الفواكه التي يقبل عليها البغداديون في موسم الصيف! في الحارات الأكثر شعبية في بغداد مثل، (القشل)، و(رأس الساكية) و(عكد الاكراد)، و(الفضل)، و(العمار)، و(الصدرية)، و(سرتية)، كان الاطفال في ايام الاعياد يستقلون العربانات الخشبية والتي تدفع باليد في جولات ممتعة لقاء (فلسين) فقط في معظم الأحيان! اما البغداديون الكبار، فكانوا يستقلون العربات التي تجرها الخيول، للتزاور، او المتعة... او العبور من حارة تسكنها المحبوبة الغائبة عن الانظار! كانت حياة جميلة ولاشك، لها طعم التمر السكري السائل من غابات نخيل البصرة، و"الرمان" ذي الطعم المشوب بـ"الحامض حلو" المتساقط من أشجار الرمان الكثيفة في (بدرة)... فهل هناك نخيل الآن في (البصرة) أم هل هناك اشجار رمان في (بدره)؟! منذ زمن بعيد قال الشاعر الشعبي (الملا عبود الكرخي): بغداد مبنية بتمر فلش وكل خستاوي! لذلك كانت الاعياد والحياة حلوة، ولذيذة في بغداد... محبة لاحد لها لـ(بغداد)... لناسها، وازقتها، وبيوتها، وطفولتها! ولم تكن متعة ارتياد دور السينما الشعبية في بغداد، اقل اثارة من المتع الاخرى للاعياد فيها. فـ"دور السينما الشعبية" كانت تعرض الافلام التي يعجب بها الاطفال ويحبونها.. افلاما مثل "طرزان والقردة شيتا"... وكان اول "طرزان" حاز على شهرة واسعة هو الممثل وبطل السباحة العالمية "جوني ويسمولر"... وقد توفي هذا الفنان العظيم الذي درت عليه افلامه ملايين الدولارات، ثم افلس فاضطر للعمل بوابا في احد الفنادق بـ (لوس انجليس)! تبعه في تمثيل ادوار –طرزان–، الممثل الاشقر الوسيم "ليكس بارکر". كما كانت دور السينما الشعبية في بغداد تعرض افلام رعاة البقر في الغرب الاميركي، اشهرها، افلام: (الولد ابن الحداد) و–وجون واين والن لاد وافلام: (الخفاش) الذي يسمى الآن (باتمان) و(فلاش كوردن) و(الملك كالا) وهي سلسلة شيقة من افلام الفضاء الخارجي رصدت في اخراجها احدث مبتكرات التكنولوجيا! كان (الملك كالا) الشرير، الطاغية، موضع غضب وكراهية الاطفال المشاهدين، وكانوا يوجهون اليه، عند ظهوره على الشاشة الفضية، اقذع الشتائم البغدادية ذات المغزى العميق، والمحبوك بعناية فائقة! وبالطبع فان موقف الاطفال البغداديين من (الملك الشرير) الذي يقسو على بطل وبطلة الفيلم والناس العاديين، لم يكن موقفا سياسيا بمعناه المألوف، بل لأن البغداديين، ومنذ طفولتهم جبلوا على رفض الطغيان والظلم، سواء اكان اجتماعيا ام سياسيا! وبهذا الصدد، يحكى انه تم تعيين معلم في المدرسة الحسينية الابتدائية بمنطقة (الدهانة).. وكانت والدة المعلم المذكور تعمل طاهية في (قصر الرحاب) الذي كان يسكنه الامير (عبدالاله) خال الملك فيصل الثاني. وقد تم استقبال المعلم بشكل احرج المدير والهيئة التدريسية، حيث كتبت شعارات سياسية مناهضة للملكية على لوحات الكتابة (السبورات) بالطباشير

بغداد أجمل من أسطنبول

رحالة فرنسية تكتب مشاهداتها سنة 1881

ترجمة: عبد الواحد محمود

١٤ ديسمبر ١٨٨١:

عمال السفينة يروحون ويغدون بعجلة واضطراب في الصالون ، هذا يمسك بأذيال ذلك وهذا يصرخ باعلى صوته ينادي آخر: وهذا يجب علي ان اقول ان سفينة "الموصل" لها ميزة اخرى غير التي ذكرتها من قبل وهي ان صالونها لم يكن في الواقع الا المرات الجانبية الضيقة وان هذا الصالون هو محل راحة المسافرين الوحيد فعليك تقدير ماكنا نحن المساكين فيه..

ومهما يكن من امر فاننا بلغنا بغداد والسفينة القت مرساتها في المحل المعين وكان ذلك مع بزوغ الشمس وارتداد جحافل الليل البهيم، ولقد قمت من النوم استعدادا للهبوط وما كدت اتجاوز الصالون الى الخارج حتى وجدت على مقدمة السفينة وعلى اقفاص الدجاج ندى متكاثفا بخيل الى الرائي انه بقايا برد متساقط.. ولقد قبل لنا ان هذه هي المرة الاولى التي تجمد فيها الماء ويكون ذلك بمثابة اعلان لقدوم فصل الشتاء. بيد انني كنت فرحة جذلة لا لشيء الا انني نجوت من قضاء مثل هذه الليلة في طيسفون.

الواقع ان مناخ البلدان الشرقية يبعث على العجب والدهش، حتى الشتاء لايستطيع ان يلبس الارض لباس الاسى، وكل ما يحدث هو ان يتغير منظرها بعض الشيء فقط. ومع ان الهواء بارد فما زالت الاشجار مخضرة – كما تبدو – وكأن الفصل فصل ربيع لا شتاء!! ها هي اشعة الشمس تملأ السماء رويدا رويدا وتبدو على الساحل الابنية والقبب المصنوعة من الكاشي بصورة واضحة. والطيور زرافات زرافات تحط على القبب كيما تجفف باشعة الشمس الاولى اجنحتها المبللة!! والنخيل تتساوق مع المنائر الساهقة ومدارس وابنية الكمرك على مقربة منا وامامها جمع غفير من اليهود والارمن والعرب بالبستهم الملونة، وعن كثب تبدو بساتين مزدهرة بينها بناية القنصلية الانكليزية تظهر بشكل اخاذ.. كل هذه المناظر الخلابة كانت غارقة بين طبقات من الضباب والابخرة المتصاعدة من دجلة، يخيل للرائي ان الساحل الايمن من نهر دجلة اجمل وان سكنته الذين يعيشون تحت ظلال النخل الوريفة والاشجار المخضرة الاخرى هم اسعد واكثر راحة ممن سواهم وان حياتهم التي يضونها في منازلهم تلك هادئة رضية وانهم بعد ذلك لا اتصال لهم بالدوائر والمحال التجارية والخانات من قريب ولا بعيد!! ولكن الواقع خلاف ذلك..

ما ان ملأ الضياء السماء حتى بدأ – واضحا جليا عن كثب – جسر عائم لم يكن عرضه بمستوى واحد في جميع جهاته كما لم يكن على استقامة واحدة. ويظهر عليه كمثل من الناس بالبستهم المختلفة وهم في حالة رواح ومجيء دون ان يلووا على شيء ، وكانهم يذهبون الى دوائرهم الرسمية او الى متاجرهم. كما هناك ثمة كان عدد كبير من النساء – يظهرن – ايضا بعباءاتهن الحمر او الزرق او الخضر. يذهبن يوجيئن مع الرجال وهم يرتدون الاليسة البيضاء او الصفر كتفا الى كتف!!. وزيادة على كل هؤلاء الناس فثمة حيوانات كقوافل من الجمال والحمير والجياد تعبر على هذا الجسر الذي لاسياج ولا دعائم تمسكه!! وخلاصة القول ان البسة هؤلاء الرجال والنسوة الزاهية الملونة بالوان مختلفة كانت تشل منظرا خلابا وكاني بها قد قبست – الوانها تلك – من قوس قزح!!

ليس من الممكن ان تقيس بغداد باسلامبول ودجلة بالبسفور فلا وجه للمقايسة بين ذلك قط!! انني لم ار على جسور اسلامبول او (سر عسكرية) او (الطوبخانة) مثل هذا المنظر الجميل الذي رايته اليوم على جسر بغداد!.. لم ار مثل ذلك الجمع الغفير بالملابس الزاهية المختلفة وهم في دأب ونشاط!!.

والواقع لم يكن ذلك الازدحام مقصورا على خيط الجسر الذي يبدو من بعيد بل كان اينما وجهت بصري راه.. هنا في المحل الذي رست فيه سفينتنا وهناك على الضفاف النائية..

ويبدو على هذه الضفاف قوارب كثيرة ربط كل منها بحبل بالارض الصلبة.. كما رأى في وسط النهر زوارق اخرى باشكال واحجام مختلفة وهي في حركة دائبة!! وثمة سفن شراعية تحمل الحبوب والبضائع الاخرى وتصنع مثل هذه السفن – في العادة – من جذوع النخل وتطلى بطبقة كثيفة من القار من الداخل والخارج.

ان مثل هذه الوسائط للنقل لا يكلف صنعها مبلغا كبيرا من المال كما ان اصلاحها اذا ما اصابها عطب سهل ميسور وهو ان يتم طليها مرة اخرى بالقار. وارى من مكاني هنا عدة اشخاص منهمكين في صنع واسطة كهذه الوسائط النقلية!!. كما ارى قسما منها على وشك التمام، تعالت رؤوسها الى اعلى وفوق سطحها يذيب العمال القار بواسطة النار ويطلون به جذوع النخل التي صنعت منها السفينة كما نفعل نحن تماما في تبليط شوارع باريس!. وتستخدم هذه السفن عادة في السفرات الطويلة بين بغداد والبصرة وموضعها هو تحت الجسر القائم قرب ضفة النهر اما على الجانب الاخر من الجسر فتوجد وسائل للنقل اخرى تسمى "الكلك" وهذه تستخدم في العادة في اعلى النهر لانها لاتسير الا مع مجرى الماء وبمعاونته.

ويصنع "الكلك" هذا من جمع عدد من القرب بعد نفخ الهواء فيها وربط كل منها بالاخر بحبال. وتوضع فوقها الواح من الخشب وتغطى هذه بطبقة من الاشواك لكي تحفظ البضائع التي توضع فوقها من البلل!.

ويقف على جوانب "الكلك" هذا عماله وبايديهم قطع طويلة من الاخشاب يجذفون بها الماء ليسير بيسر وسهولة مع مجرى النهر نحو بغداد..

ومن الممكن ان يحدث ما يمزق بعض هذه القرب في الطريق ولكن مهارة القائمين عليه تسد مراسهم يحول دون توقف "الكلك" عن السير او الغرق!

وما ان يصل هؤلاء "بكلكهم" الى بغداد، حتى يبيعوا تلك الاخشاب والاشواك ولا يبقون شيئا سوى القرب فانهم يفرغونها من الهواء ويحملونها معهم على دواب يستأجرونها الى بلدهم ليعيدوا الكرة منها الى بغداد!.

اسعار الكلك تتناسب عادة مع عدد القرب التي تستخدم فيه، يتفق بعض الاحيان ان تستخدم اكثر من ثمانين قربة وفي هذه الحالة يحمل الكلك المسافرين فضلا عن البضائع ولكن بعد ان يرفع عليه قطعة ثخينة من المشمع ليقيهم من عوارض الجو ومن الفيظ وقر!!..

اما في الحالات التي لا يحمل فيها الكلك شيئا سوى البضائع التجارية كالخراف والدجاج والطيور والفواكه وقوالب الجبن الكبيرة والبرغل التي يطيخ منها اكلة لذيذة فلا يستخدم الا خمسون قربة كما انه لا يحتاج الى قطعة المشمع!!.

وتأتي هذه الاكلات عادة من النواحي البعيدة جدا التي يكثر فيها الخشب والغابات لان ذلك من المواد الاولية في صنعها والتي لا توجد منها في بغداد، هذا ما يستخدم في السفرات البعيدة بين الاصقاع الواقعة في الشمال اما ما يستخدم بين العاصمة وضواحيها والقرى القريبة فبوسيلة اخرى تسمى "القفة" وهذه تكون على شكل دائري مقعر وتصنع عادة من سعف وجذع النخل وذلك بعد ان تطلى بطبقي كثيفة من القار. والقفة يديرها شخصان ويسيرانها بواسطة مجاذف طويلة بحركاتها تارة هنا واخرى هناك! لذلك هي اقل الوساط الاخرى سرعة ولكنها امنها واكثرها اطمئنانا من التعرض لاخطار الغرق. وان شحنت ببضائع ثقيلة ولم يفصل حافتها عن مستوى الماء الا خمسة عشر سنتمترا فقط.. مع ذلك لا تخترقها قطرة واحدة من مياه النهر! والقفة هذه تكاد تختص بحمل انواع الفواكه المختلفة مثل الرقي والبطيخ

ليس من الممكن ان تقيس بغداد باسلامبول ودجلة بالبسفور فلا وجه للمقايسة بين ذلك قط!! انني لم ار على جسور اسلامبول او (سر عسكرية) او (الطوبخانة) مثل هذا المنظر الجميل الذي رايته اليوم على جسر بغداد!.. لم ار مثل ذلك الجمع الغفير بالملابس الزاهية المختلفة وهم في دأب ونشاط!!.
والواقع لم يكن ذلك الازدحام مقصورا على خيط الجسر الذي يبدو من بعيد بل كان اينما وجهت بصري راه.. هنا في المحل الذي رست فيه سفينتنا وهناك على الضفاف النائية..

في فصل الصيف الى بغداد..

ولا ادري اين اضع الزوارق التي ذكرها "هردوت" في كتابه التاريخي بين وسائل النقل هذه التي ذكرنها فيما سلف؟

خلال ايام سفرتي من البصرة الى هنا استطعت ان اجد وقتا اقضيه بالمطالعة وان الم بطرز الملاحة على ايام البابليين في هذا النهر. ولكم تعجبت من الخطأ الذي وقع فيه بعض الكتاب من عدهم القفص الذي شرحه "هردوت" زورقا اعتياديا لا يختلف عن الزوارق الاخرى.

وانني استطيع ان اثبت ادعائي هذا من غير ان احتاج لكثير استدلال او ازجاء وقت طويل! لان هردوت نفسه يقول ما نصه: "يستخدم البابليون في الهبوط من اعالي نهر دجلة الى المدينة وسائط نقل دائرية مقعرة تصنع من اغصان وجذوع اشجار الصفصاف التي تكثر في بلاد الارمن واعالي المدن الاشورية على شكل الاقفاص المدورة.. ويغطي عادة سطح هذه الوسائط من الخارج بجلود الحيوانات. وهذه الزوارق تشبه الدروع الدائرية التي تستخدم في الحروب وتوضع تحت هذه الزوارق القرب والجلود وتحمل هذه البضائع التجارية. وجل هذه هي دنان الخمر الفخار – الخمر المصنوعة من التمور ويقف في هذه الزوارق عادة شخصان يسيرانها بمجاذف في ايديهما بالتناوب وبحركة دائبة!.

وهذه الزوارق على احجام وانواع مختلفة واكبرها يستطيع حمل ما يزن خمسة الاف تالان وبعد ان تصل هذه المدينة يبيع اصحابها البضائع المحمولة كما يبيعون الواح الخشب ومن ثم يعودون الى امصارهم على ظهور الدواب وهم لا يحملون مما كان معهم غير القرب ذلك لانهم لايستطيعون ان يعودوا بزواقهم تلك بعكس اتجاه مجرى النهر السريع لذا نراهم يصنعون زوارقهم من جلود الحيوانات وبمجرد وصولهم الى بلادهم – ارمنستان – يعيدون صناعة تلك الزوارق عودا على بدء"! هكذا ذكر هردوت زورقا ليس له مقدمة ولا مؤخرة، ولا يضيف الا انه يشبه القفص او الدرع الدائرية وانه مصنوع من اغصان وجذوع شجر الصفصاف وحوافه من هذه الاغصان الطرية..

يتضح مما ذكره هردوت اذن ان القفة التي يذكرها – ولايسميها – هي على نمط قفة اليوم وتشبهها الى حد بعيد. علاوة على ذلك فاني اكتشفت في الاثار الاشورية صورة منحوتة على حائط من حيطان نينوى تمثل شكل القفة القديمة التي تناظر ما عليها اليوم في بغداد واراه الان امامي يخطر كل منها على سطح مياه النهر الرائقة.. وهذا الاثر المكتشف يرجع تاريخه الى ثمانمائة سنة قبل الميلاد. فهل يبقى – بعد ذلك – شك من ان زوارق هردوت هي لا تختلف عن الزوارق الاعتيادية كما خيل الى الكتاب المؤرخين!.

ولكن – مع ذلك – ينبغي الا ننكر ان ثمة تباينا بين (قفة) هردوت و(القفة) المستعملة اليوم، وذلك هو ان الاخيرة مطلية من الخارج والداخل بطبقة كثيفة من القار اما التي كانت معروفة على زمن البابليين فكان يعتاض بجلود الحيوانات عن القار. ومن ناحية اخرى فانه يقول – اي هردوت – انهم بعد وصولهم الى المدينة المقصودة وبيدهم بضائعهم التجارية يعودون الى امصارهم وهم يحملون معهم القرب والجلود فقط على ظهور الحمير!..

يحتمل مما تقدم انه كان يقصد – باقواله تلك – الكلك ولكنني اشك في ذلك لان الملاحين اليونان قد ذكروا الكلك والقرب المنفوخة بالهواء ولكنهم لم يذكروا شيئا عن مقدمة ومؤخرة تلك.. واعتقد انه ينبغي ان تأخذ باقوال هردوت تلك دون زيادة ونقصان وان كانت زوارق البابليين على شكل قفة اليوم الا انها كانت من اسفل مظاهرة بجلود خيوط كل منها بالاخر وان الصورة التي اكتشفت في نينوى تؤيد رأيي هذا ولا تدع مجالا للشك!!.

×××

لنعد الى ما كان من امر سفرتنا.. فاقول ان المرة الاولى التي ركبت بها القفة في دجلة كانت مزعجة.. فما كدنا نقعد فيها حتى راحت تدور بنا على صفحة مياه النهر بسرعة حتى خيل الي اننا على وشك الغرق.. وبعد لأي ونصب بلغنا ضفة النهر ووضعنا ارجلنا اول مرة على ارض مدينة الست زبيدة وهارون الرشيد. ومن حسن الحظ ان القنصل الفرنسي في بغداد كان قد علم بخبر وصول السفينة وارسل احد خدمه لاستقبالنا ومساعدتنا!.

والقنصل الفرنسي في بغداد اليوم هو مسيو برتية (Peretie) ابن احد علماء الآثار المعروفين الذي قام بحفريات كثيرة واستطاع ان يكتشف اشياء مهمة القت ضوءا ساطعا على كثير من الحوادث التاريخية القديمة..

وخلاصة القول اننا بعد فترة مديدة من التغرب عن وطننا الحبيب استطعنا ان نرى مرة ثانية حياة عائلة فرنسية قابلنا اعضاؤها بود وحنان. ولقد وضعت مادام برتية غرفة بناتها تحت تصرفنا. وكنت ابدو مسرورة جدا لانني سانام هذه الليلة نوما هادئا على سرير مريح نظيف بعد ان حرمت ذلك منذ ان خرجنا من طهران حتى اليوم اللهم الا في مدينة جلفا التي نمنا في بيت صديقنا "بر باسكال" واذا اردت ان اقول الحقيقة فمن هناك لم انم بامان واطمئنان ذلك لان السرير الذي وضعه لنا صديقنا برباسكال – عفا الله عنه – كان خشنا يشبه الى حد بعيد (التخت) الذي يستعمله المشعوذون والدجالون فيما ياتون من خوارق !! ولكن الليلة على اي حال سانام ملء عيني لا يعكر صفوي شيء .. ولقد ارشدتني بنات مادام برتية العاطفات الى جميع مرافق الدار قبل ان اذهب الى غرفتنا واستغرق في نومي العميق!.

عمارة القنصلية الفرنسية صنعت بايدي العمال البلديين كأي دار من الدور الاخرى لايميزها شيء لانها بنيت لسكن عائلة منهم وليس لاتخاذها دارا للقنصلية. ولغرفها مشارف ذات شبابيك صنعت من الزجاج الموزائيك على احجام مختلفة كل قسم منها مؤطر باطار من خشب صغير.. ولها ستائر كبيرة بيض وحمر تستخدم في منع اشعة الشمس من الدخول الى الغرفة في وقت الظهيرة التي يشتد بها قيظ الجو!.

ولقد اضطر اهالي بغداد الى انشاء مساكنهم بشكل خاص يستطيعون به ان يقوا انفسهم من نقليات المناخ بين الصيف الذي تشتد فيه الحرارة بدرجة لا تطاق والشتاء الذي يبرد فيه الجو حتى لتحس ان اعضاءك على وشك الانجماد!! ففيها على هذا الاساس اربعة اقسام لكل فصل قسم خاص به ينتقلون اليه عندما يحل.

ففي اسفل المنازل تحت الارض حجر واسعة مسقفة يصل عمقها الى ثلاث امتار او اربعة تسمى بالسراديب! وهذه الحجر العجيبة تستخدم في فصل الصيف وينتقل اليها جميع اثاث المنزل لانها لو تركت في الطبقات العليا من المنزل فان الارضة لم تدع شيئا منها وتحيلها الى تراب.

وهذه السراديب تحوى منافذ للهواء طويلة تعمل على تلطيف الجو. ويقضي اهالي بغداد عادة وقت الظهيرة فيها وعندما يحين العصر يخرجون منها وانفاسهم ضائقة الى سطوح المنازل لاستنشاق الهواء الذي لايقل عما كان في تلك الحجر.. ذلك لان الجو لا يتلطف ولا يتغير في بغداد على رغم جنوح الشمس الى الغروب واختفائها وراء الافق – اي على عكس ما هو في ايران.

وتبدو المدينة في النهار وخصوصا وقت الظهيرة وكانها خالية من المكان ولكن وقت الغروب تدب فيها الحركة. والنساء يذهبن لزيارة بعضهن بعضا من سطوح منازلهن ويقضين الليل بالقيل والقال وتدخين النرجيلة وباحتساء كؤوس الشربت المثلج.

ولوجود حشرات مؤذية تكثر على الضوء يضطرون الى اطفاء المصابيح والجلوس في ظلام دامس. وما يكاد نور الفجر يظهر في السماء حتى يدخل الجميع الى السرداب عودا على بدء ويمضون سحابة النهارو هم في حالة تراخ وكسل حتى الاشخاص القويو البنية منهم لا ينجون من مثل هذه الحالات:

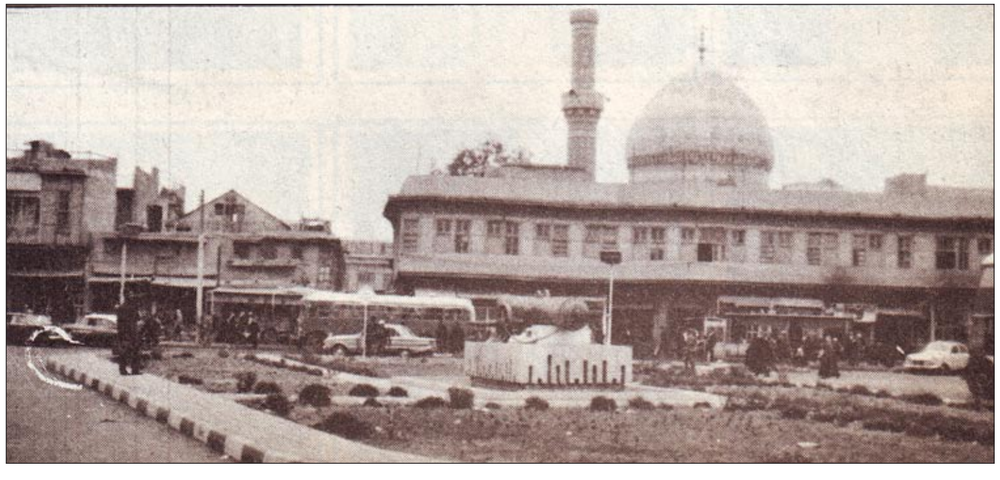

وعندما يحل فصل الشتاء ينتقل الاهلون الى الطبقة الاولى من منازلهم ومع ان مدافئهم مملوءة بالنار على الدوام فهم يرتجفون بردا. وبقدر ما كان يلقون من نصب الفيظ في الصيف فهم يلقون الامرين من قر الشتاء!.

والنساء اكثر من يلقى الاذى والنصب لما يؤمن الاهلون بعادات وتقاليد غريبة اذ يحظر عليهن ان يخرجن الى الازقة وان ارتدين ملابس فضفاضة تغطي اجسامهن من قمة الراس الى اخمص القدم. والازقة هذه – ابعدك الله عنها- ضيقة معتمة قاما يصل اليها الهواء وهي في وقت الشتار تنقلب الى برك ومستنقعات مملوءة بماء الامطار المتعفن واوساخ هذه المياه تبقى في آبار غير عميقة هناك بعد ان تنزاح المياه وتتبخر بفعل اشعة الشمس المحرقة. وفي حالة المطر الغزير تمتلئ هذه الابار وتفيض الى المجار المتصلة بها وتملا ارض الازقة بالماء والقاذورات بحيث لايستطيع الرجال ان يسيروا خلالها الا بمعونة ضوء فوانيس يحملونها بايديهم. على هذا الاساس فلا عجب اذا ظهر وباء الطاعون في مثل هذه المدينة وانى على اهليها وجعلهم حصيدا واثرا بعد عين!.

إلا ان الطبيعة – في فصل الخريف وحده – تسالم اهالي بغداد المساكين وتهدأ في حربها لهم بعد ان تذيقهم العذاب والالم في ثلاثة ارباع السنة. ففي هذا الفصل يرق الجو فلا مطرا غزيرا ولا برد قارسا ولا حر جهنميا لايطاق. لذلك نرى العوائل المترفة والاوربيين يستفيدون من رقة الجو هذه فيخرجون الى البادية ويضربون بخيم في خرائب طيسفون وسلوقية ويتلهون بصيد الظباء والطيور فانها تكثر في تلك المناطق. ومن الطبيعي ان الخروج بالصيد ليس امرا سهلا مامون العواقب ولاسيما اذا كان بواسطة رماح يهجمون بها على الحيوانات الخطرة هذه، والارض كثيرة اللخاقيق التي اختتها الجرذان البرية. وهذه الاخطار تهدد الاوربيين من هؤلاء اكثر ممن سواهم وذلك لانهم لم يتمرسوا على مثل هذه الاحوال.

ويخطر على النساء ان يشاركن في صيد الحيوانات الخطرة مع الرجال بيد انه يسمح لهن ان يصيدن من الطيور التي تكثر على ضفاف نهر دجلة في خلوات بعيدة عن الانظار.

الان – وبعد كل ما تقدم – تستطيع ان تقدر عذاب وآلام الموظفين المساكين الذين حكم عليهم بان يسكنوا في مثل هذه المملكة. وهؤلاء المساكين قد اعتادوا هذه الحياة القاسية اليوم ولكنهم صدموا بواقع بغداد صدمة عنيفة بعدما كان من قرائنهم عنها في كتاب الف ليلة وليلة!..

في شتاء عام 1932 كان معاون شرطة السراي محيي الدين عبدالرحمن جالسا في مكتبه بالمعاونية، حين استدعاه مدير شرطة لواء بغداد شخصيا للحضور الى مقره لأمر مهم، وحين دخل عليه أخبره مدير اللواء بحدوث في البلاط الملكي، وأن المسروقات هي سيف الملك فيصل الأول شخصيا، ولما يعهده في المعاون محيي الدين فقد أمره أن يتوجه على الحال وفورا الى البلاط الملكي، ومقابلة رئيس الديوان الملكي آنذاك المرحوم رشيد عالي الكيلاني، لأخذ التوجيهات والاستيضاحات منه عن الحادث..

محطات من تاريخ الشرطة العراقية

من سرق سيف الملك فيصل الأول؟

د. عبد الرزاق المشهداني

حين وصل معاون السراي الى البلاط دخل علي رئيس الديوان فرحب به لوجود معرفة سابقة بينهما، وشرح له تفاصيل سرقة سيف جلالة الملك من مكتبه الخاص، ثم طلب الكيلاني منه الذهاب الى غرفة جلالة الملك للسلام والاستئذان بمباشرة التحقيق حول الحادث، وكان اللقاء سريعا بسبب انشغال الملك بموعد مقابلة مع السفير البريطاني في بغداد.

ثم باشر المعاون أعماله وتم تكليف ملاحظ رئاسة الديوان الملكي لمرافقته في تحقيقاته، وابتدأ المعاون بتدوين أقوال العاملين في البلاط وأخذ المعلومات التي يتطلبها التحقيق. فالسرقة وقعت في المكتب الخاص لجلالة الملك، والسيف كان في دولاب خشبي مثبت عليه زجاج شفاف، ولم يلاحظ أية شدة أو عنف في كسر أو فتح الدولاب.

حصر الشبهات

ومن خلال تدوين الأقوال، حول الأشخاص الذين يمكن أن يتردد علي المكتب الخاص بالملك، وإجراء الكشف علي محل الحادث، فإن المعاون محيي الدين عبدالرحمن حصر شبهاته في شخصين فقط، هما:

المدعو (أبو شفيق) وهو سوري الجنسية، والذي أنيطت به مهمة تنظيف مكتب الملك والأخر هو (الشيخ سنداح) المسؤول عن إعداد القهوة للملك وضيوفه وهو من الحجاز قدم الى العراق مع الملك فيصل، وقبل ذلك كان مسؤولا عن إعداد القهوة العربية في بلاط (الملك علي) عندما كان ملكا في الحجاز، قبل أن يزله آل سعود فقدم الي العراق للعيش في كنف الملك فيصل الأول.

إخبار جلالة الملك بالخبر

وقام المعاون محيي الدين بإبلاغ رشيد عالي رئيس الديوان بما توصلت اليه تحقيقاته، فأخبره الكيلاني أن الأمر يتطلب إشعار جلالة الملك بالنتائج، وفعلا دخل الإثنان على الملك فيصل، الذي رحب بالمعاون وأمر بتقديم القهوة له إكراما، وجاء الشيخ سنداح وقدم القهوة، وحين خرج أخبر الإثنان الملك بما توصلت اليه تحقيقات المعاون محيي الدين، فصعق الملك لهذا الخبر، لأن آخر من يشك بهما هما خادماه المخلصان، وبدا عليه التأثر الشديد، وقال بعد صمت:

يؤلمني ان يحدث هذا الأمر ولا أكاد اصدق ان هؤلاء يمكن أن يسيئا لي يوما، وأني حين قدمت الى العراق قدم معي اتباع مخلصون من الحجاز ومن سورية.. وعلي كل حال ارجو أن لا يتالهم أي أذى.

ثم استأذن المعاون من الملك، وخرج مع رئيس الديوان، وقال المعاون لرئيس الديوان:

أرجو الأذن لي باستصحاب هذين الشخصين معي الى مكتبي في معاونية شرطة السراي لمواصلة التحقيق معهما ...

فلم يمانع رئيس الديوان.

وفي مركز الشرطة اختلي المعاون محيي مع السوري (أبو شفيق) وحين تعمق معه في التحقيق انهار، وأخذ يبكي وقال:

هل من المعقول أن أخون سيدي جلالة الملك الذي أكرمني غاية الإكرام؟..

وفي هذه الإثناء حضر الى المركز شقيقه (الحاج خيرو) وهو صاحب محل لبيع المرطبات في سوق الأمانة بشارع الرشيد، وهو صديق قديم للمعاون، فرجا منه أن يختلي مع شقيقه لوحدهما، فأذن له، واختلي معه، ثم خرج من عنده واخبره أن شقيقه ليس هو السارق وهو متأكد من صدقه.

وهنا رجع المعاون الي أبي شفيق وطلب منه أن يعود بذاكرته الي الوراء ويستعرض سلوك (الشيخ سنداح) وعاداته، فهل تغير شيء من سلوكه بعد اختفاء السيف؟.

فأطرق برأسه ليتذكر، وبعد صمت قليل أخبر المعاون أن الشيخ سنداح قد تغير سلوكه فعلا بعد اختفاء السيف، وأخذ يطيل البقاء في غرفته، وكان يحمل أكداساً من أكياس الفحم ويقوم بتكديسها في الغرفة.

وحين استفسر منه عن السبب، قال له أنه يحتاجها لموقد القهوة.

وهنا قام المعاون بتهيئة سيارة المعاونية واصطحب معه أبو شفيق الى البلاط الملكي، وتوجه مباشرة الي غرفة الشيخ سنداح فوجده فيها ولما رآه يدخل عليه الغرفة فجأة، اضطرب واصفر وجهه، وقال للمعاون:

ماذا تريد؟

قال المعاون بهدوء:

أريد سيف جلالة الملك! فأنت السارق.

فخرج راكضا من الغرفة ليشكو المعاون عند رئيس الديوان، وفي اثناء غيابه ألقى المعاون نظرة فاحصة على الغرفة التي يسكنها الشيخ سنداح، فوجد أكياس الفحم بصورة تكديس ليس له مبرر. فخطرت ببال المعاون قضية مماثلة سبق أن أجرى التحقيق فيها حيث حصلت سرقة في دار شاكر البحراني وكانت المسروقات مصوغات ذهبية تعود الي زوجة صاحب الدار حيث عثرت الشرطة علي الذهب في الدار المقابلة لدارهم مخبأ في (حفرة) وضعت عليها أكداس من الحطب، وقد اعترف صاحب الدار علي السارق وكان يدعي (جليل) وهو لص محترف.

وهنا حضر رئيس الديوان ومعه الشيخ سنداح مكفهر الوجه وبدا يتذمر من اتهام المعاون له، فما كان من المعاون إلا أن يقول لرئيس الديوان: ارجو أن تأمر بإخراج جميع محتويات الغرفة.. وفعلا تم تفريغ محتويات الغرفة، فلما اصبحت أرضية الغرفة خالية من المواد، طلب المعاون إحضار ماء، وأمر بعض عمال القصر، أن يسكب الماء علي أرضية الغرفة المصفوفة بالكاشي من النوع متوسط الحجم وان يسكبوه بهدوء، وأخذ الماء ينتشر علي أرضية الغرفة فلما وصل الماء إلي زاوية منها ظهرت فقاعات دلالة علي حفر حديث في هذه المنطقة.

فطلب إليهم أن يحفروا في هذه المنطقة وبحضور رئيس الديوان والشيخ سنداح العالمية الثانية من مصائب وويلات لعموم العالم وسعوبه، ممن اشترك مباشرة في الحرب او لم يشترك.

وحين انزاحت عن البشرية المفجوعة باوزار الحرب واثامها.. تلك الغمة المظلمة القاتمة، باعلان نهايتها والعودة بالعالم الى السلام، وبالحياة الى غايتها النبيلة الاصيلة في خدمة الانسان، عام ١٩٤٥، قررت تلك النخبة من الاخوان والاصدقاء، ان تقوم بخدمة عامة للمواطنين الاميين الذين لم تسعفهم الظروف للدراسة والتعلم في طفولتهم وصباهم..

هل الشرف واجل من مهمة ايصال العلم والثقافة الى من بحاجة اليهما من المواطنين، الذين كان عددهم كبيرا جدا يومذاك في بغداد خاصة وارجاء الوطن عامة. وتحولت الفكرة النبيلة الى حيز العمل والتطبيق واستقرت الاراء على ان نستنير باستاذنا العلامة الجليل السيد (محمد الحيدري)، العالم المسؤول عن جامع (الخلاني) وراعيه وامام الصلاة فيه. وكانت العلاقة بيننا وبين السيد الجليل علاقة وثيقة طيبة، اذا قلت انها علاقة اب بابنائه او اخ كبير باخوته فلا اتجاوز الواقع.

ولما قصدناه لعرض الموضوع والتماس حسن التوجيه قال:

ان خدمة العلم ونشره بين الناس عمل مبرر مشكور من الله والناس، وهو فرض يرقى الى مستوى العبادة.

وقد كان هذا الموقف المتجاوب من السيد الحيدري هو المأمول فقد كان متميزا عن اقرانه وزملائه من رجال الشرع الشريف وعلمائه، بمميزاته فريدة نادرة، فقد كان فضلا عن تضلعه في علوم الدين والتفسير والفقه والتاريخ الاسلامي واللغة.. رجلا اجتماعيا يطعي لكل حقه، جم التواضع مع

مكتبة الخلاني العامة.. تاريخ وذكريات

بقلم: ناجي جواد الساعاتي

صحفي وباحث راحل

هذه خواطر وذكريات ولمحات عن الماضي القريب، انقلها نقلا حيا عن الذاكرة، وسأعرض في مضامينها موحيات الفكرة النبيلة الاولى التي كانت حلما لذيذا يداعب نفوسنا وعقولنا اول الأمر، ثم ترجمت الى عمل خيري نبيل ينفع الناس ويخدم المجتمع.

وكان ذلك منذ ما يزيد على اربعين عاما. يوم كنا نخبة من الاخوان والاصدقاء، تتفاعل مع احداث الوطن ووقائعه، ونتحسس بما كان يعانيه ابناؤه من الجهل والفقر والمرض، لقد كنا ندرك عن وعي بما قرأناه وبما القى الينا من حقائق الامور التي رواها لنا اهلنا ما خلفته الحرب العالمية الاولى من جوانب التخلف والتأخر في الحياة العراقية.. ثم ادركنا بالحضور والمعايشة ما جلبته الحرب العالمية الثانية من مصائب وويلات لعموم العالم وسعوبه، ممن اشترك مباشرة في الحرب او لم يشترك.

وحين انزاحت عن البشرية المفجوعة باوزار الحرب واثامها.. تلك الغمة المظلمة القاتمة، باعلان نهايتها والعودة بالعالم الى السلام، وبالحياة الى غايتها النبيلة الاصيلة في خدمة الانسان، عام ١٩٤٥، قررت تلك النخبة من الاخوان والاصدقاء، ان تقوم بخدمة عامة للمواطنين الاميين الذين لم تسعفهم الظروف للدراسة والتعلم في طفولتهم وصباهم..

هل الشرف واجل من مهمة ايصال العلم والثقافة الى من بحاجة اليهما من المواطنين، الذين كان عددهم كبيرا جدا يومذاك في بغداد خاصة وارجاء الوطن عامة. وتحولت الفكرة النبيلة الى حيز العمل والتطبيق واستقرت الاراء على ان نستنير باستاذنا العلامة الجليل السيد (محمد الحيدري)، العالم المسؤول عن جامع (الخلاني) وراعيه وامام الصلاة فيه. وكانت العلاقة بيننا وبين السيد الجليل علاقة وثيقة طيبة، اذا قلت انها علاقة اب بابنائه او اخ كبير باخوته فلا اتجاوز الواقع.

ولما قصدناه لعرض الموضوع والتماس حسن التوجيه قال:

ان خدمة العلم ونشره بين الناس عمل مبرر مشكور من الله والناس، وهو فرض يرقى الى مستوى العبادة.

وقد كان هذا الموقف المتجاوب من السيد الحيدري هو المأمول فقد كان متميزا عن اقرانه وزملائه من رجال الشرع الشريف وعلمائه، بمميزاته فريدة نادرة، فقد كان فضلا عن تضلعه في علوم الدين والتفسير والفقه والتاريخ الاسلامي واللغة.. رجلا اجتماعيا يطعي لكل حقه، جم التواضع مع الصغير والكبير، وحين وجدنا مستعدين لمباشرة التدريس وادرك بومضة مشرقة من تفكيره بان المشروع معلق بايجاد المقر الملائم لاستيعاب الدارسين..

خصص لنا غرفة بجوار المصلى لتكون صفا تقام فيه الدروس كل مساء، وكان مقتصرا على تعلم مبادئ القراءة والكتابة والحساب..

وثبتت السبورة السوداء على الجدار واكتملت مقومات الدراسة.. وحين شرعنا بنشر دعوتنا بين ابناء حارة (الخلاني) توافد علينا الراغبون في الدرس من مختلف الاعمار ممن لم تسمح لهم اعمالهم اليومية المضنية بتوفير فرصة الدراسة والتعلم لهم والمواظبة في المدارس النهارية. وكان الاقبال شديدا، وتلقى الدارسون دروسهم بشوق ولهفة واصغوا بادب ورغبة، وضاقت الغرفة بالعدد واضطررنا الى لقائهم بوجبات وكنا نحن النخبة قد تقاسمنا العمل بيننا لكل واحد منا اسبوعا كاملا، (ناجي جواد ، صالح عباس الحداد، علي حسين ومحمد علي درويش وعبد الحميد المحاري) كنا متعاونين ومتلفين جدا لنجاح المشروع يدفعنا عاملان قويات للمضي في العمل، اولهما اقبال المواطنين وانتظام مواظبتهم وثانيهما الشعور الوطني الذي يملأ قلوبنا..

وكانت في الجامع مكتبة صغيرة هي مجموعة كتب ومصاحف ومصادر تتعلق باختصاصات رجل الدين وممارساته يملكها علامتنا (الحيدري) . وذات مساء كنا مجتمعين به لتدارس احوال المشروع وشؤون الدارسين اثار اجتماعنا بفكرة جديدة، عبرت عن رغبته الصادقة وامنيته الكريمة في نشر الثقافة بين الناس وخاصة من كان متعلما او مثقفا منهم عن طريق تأسيس مكتبة ملحقة بالجامع، على ان تكون غرفة التدريس مقرا لادارتها.. معولا في ذلك على همم الشباب ، وعلى ما يجود به الخيرين لمدنا بالكتب وبالمال.. وانهالت التبرعات كتبا واموالا من كل مكان ، من علماء وادباء واساتذة واصحاب مكتبات خاصة وعامة في العراق، يشاركهم في البذل والتبرع المؤلفون والناشرون.

وكانت هذه البداية الرائعة هي بداية تاسيس (مكتبة الخلاني العامة) عام ١٣٦٤هـ، ١٩٤٥م، نفس السنة التي باشرنا فيها تعليم الاميين.. وتطور المشروع وباركه الخيرون من اجل ان تكون المكتبة منارا لنشر الثقافة وكنزا يضم جواهر المعرفة.

وضاقت الغرفة القديمة (صف التدريس) بالكتب ومجموعها يتزايد يوما بعد يوم، خاصة بعد ان اعلن السيد في ذلك المساء المبارك عن تبرعه بمكتبته النفيسة ذات الكتب القيمة للمشروع الجليل، فما كان من الحاضرين الا الاقتداء والامتثال، ممن كان يملك مكتبة تبرع بها او ببعض كتبها، ومن لم يكن كذلك تبرع بالمال، ومن لم يكن يملك لا هذا ولا ذاك تطوع بالجهد والسعي.

وممن اذكرهم بين اوائل المتبرعين بالكتب السادة (وائل السعدي) وهو يهدي مكتبته الصغيرة في عدد كتبها الكبيرة في مغزاها، والاستاذ (يحيى الباجه جي) وقد هزته الاريحية فيقدم مجموعة طيبة من كتبه، كذلك فعل المحامي (عبد الرزاق الشيخلي) و(الحاج حسين علي المحاري) وغيرهم كثيرون، ثم تسعفنا عائلة المجاهد الكبير والوطني الحر (الحاج محمد جعفر ابو التمن) فتهدي مكتبته ذات الكتب النادرة والمظان الفاخرة، وبهذه الاريحية العالية والتجاوب الكريم، تضاعف نشاطنا وازداد بالخيرين ايماننا، والناس هم الناس، في كل مكان وزمان، تسحرهم الدعوة الخيرة، ويساندون العمل المجدي الذي تعود ثماره لصالح المجموع، اما انا فقد بلغ ايماني بالفكرة وحماسي لتاييده حدا دفعني لتقديم كتبي كلها هدية الى المكتبة، مع جميع ملحقاتها ومكوناتها من منضدة كبيرة للكتابة وخزانة للكتب ودولاب خاص بالبطاقات المكتبية والارشيف، وحين غصت الغرفة الصغيرة باعداد الكتب الكثيرة المنهالة علينا من كل مكان، وقعنا من امرنا في حيرة، وتوالت اجتماعاتنا لدراسة الموقف وحل ازمة الكتب المكدسة!.. وفي مرة من المرات اشار علينا السيد الحيدر باشغال الارض التي تهدمت مكوناتها ولم يبق من معالمها سوى بقايا جدار، وكومة من تراب واحجار.. فدهشنا للاقتراح الضخم، وكادت تقعد بنا همتنا عن تحقيق هذا الامر الذي يكاد يكون في حكم المستحيل، اذ من اين نأتي بالمال لتشييد القاعة والخزائن وسائر مستلزمات المكتبة..؟

ولكنني اعود لنظرتي المتفائلة الى طبيعة الاشياء، واوكد على ما امنت به دوما من ان الروح الخيرة في الانسان، تطغى على الشر، فالانسان اقرب للاصلاح منه للهدم والفضيلة منه للرذيلة، وبهذه الروح المتفائلة لطبيعة الاشياء، عقدنا العزم على اكمال المشروع والسعي من اجله قدما، وفي صباح اليوم الثاني عرضنا طلبنا على المواطن الغيور الاستاذ (صادق البصام) رحمه الله، لنحصل منه على (تخويل) بجسور الحديد من لجنة التموين العليا.

فمنحنا التخويل المطلوب وجمعنا المال لشراء الحديد وبقية المواد الانشائية، وما هي الا بضعة ايم حتى طرحت كلها في ساحة الخلاني وهي تستعطف الايدي الكريمة والسواعد الفتية والقلوب المؤمنة، لتتبرع برفعها عن الارض، ثم تحويلها الى بناء شماخ يضم تراث العلم والادب والفكر..

وهكذا ارتفعت وقامت.. ولكننا حين وجدنا اكثر رفوفها وخزائنها خالية من الكتب عاودنا حملة التبرعات داخلا وخارجا واصبح العدد يتضاعف والاقبال عليها يتنامى حتى اصبحت مقرا للدارسين من كل فئة بما فيهم الدارسين الطامحين لدراسة الماجستير والدكتوراه بما اغنيت به من مصادر ومراجع وكتب قيمة..

وكانت الفرحة الكبرى عندما بلغ عدد الكتب حداً تجاوز الـ (٢٥) الف كتاب، اقام مؤسسها العلامة (الحيدري) معرضا للكتاب في قاعاتها الرحبة عام ١٩٥٠، فنوافذ على المكتبة مساء الاحتفال جمهرة كبيرة من المثقفين والعلماء والشعراء والادباء واهل الفضل للمشاركة في الاحتفال، وكان طليعتهم العلامة الشيخ (محمد رضا الشبيبي) وعميد الحقوق الاستاذ (منير القاضي) والشاعر (محمود الحبوبي) والشاعر (حافظ جميل) والاستاذ (فؤاد عباس) والدكتور (عبد الرزاق محي الدين).

ويجمل بي ان اوضح عما صاحب مشروعنا هذا من تلكؤ وتعثر. واراني ملزما بشرح هذه الناحية بوضوح، فقد ظهر لي بعد هذه التجربة الرائدة.. ان اخطر ما تتعرض له هذه المشاريع الخيرية العامة هو الاهمال والصدود، وذلك بانطفاء جذوة المتحمسين لتأسيسها، ثم بالاخير انفضاضهم من حولها وعدم مدها بالعون والعناية اللتين تعهدوا بمواصلتهما باتجاه انعاش المشروع وادامته.

وهذا ما حدث فعلا لمكتبتنا الفتية، حيث انصرف كل منا لبناء حياته، فشغلته همومه اليومية عن الهموم الاجتماعية، ولم تعد تزور المكتبة الا لماما، ولم نسع اليها حثيثا كما كنا وانطفأت جذوره حماسنا، وتركنا المكتبة واعباءها وخدمتها، على السيد (محمد الحيدري) وحده. ولحلمه الواسع وخلقه الرضي وحسن تقديره لظروفنا، لم ينح باللائمة على احدنا ولم يوجه اليه عتبا، ولم يتخل عن مشروعنا.. فصبر صبر المؤمنين.. حتى كبر مشروع المكتبة النجاح الشامل.. ولتستقر بهم الخيرين مستودعا للعلم ومعونا للثقافة ومنهلا عذبا يرفد رواده من المطالعين المتطلعين للمعرفة.

عن كتاب بغداد في الذاكرة

في شهر حزيران من سنة 1944 دخل علي (وكنت رئيسا للديوان الملكي) كل من معالي محمد حسن كبة وكان وزيرا للشؤون الاجتماعية والسيد ابراهيم عاكف الآلوسي المدير العام للوزارة المذكورة وبعد السلام قالا انهما جاءا لعرض خدمة انسانية تخص البؤساء وانهما يريدان عرضها على سمو الوصي لتكون تحت رعايته. فسألتهما ما هذه قالا انهما يريدان مع بعض الاخيار من ابناء الوطن تشكيل جمعية لمكافحة السل للعناية بالفقراء المصابين بهذا المرض الخطير.

فقلت لهما انها خدمة انسانية ولا بد وان سمو الوصي سيقبل ان تكون تحت رئاسته الفخرية. ثم قالا لنا مطلب آخر فقلت لهما وما هو؟ قالا نريد ان تكون انت واحدا منا: فاجابتهما ان هذا المطلب يخصني شخصيا وانا اتشرف بان اكون احدكم في هذه الخدمة وقد قبلت ذلك. فاجابا اننا نريد ان نأخذ موافقة سمو الوصي بذلك ايضا. وبعد ان قابلا سمو الوصي ورجعا قالا انه قبل المطلبين وبها اصبحت احد الهيئة المؤسسة.

من مذكرات المرحوم تحسين علي
رئيس الديوان الملكي

هكذا أسس مستشفى (التويثة) للأمراض الصدرية

وبذلك اصبح عددنا اربعة عشر والمحررة اسماؤنا في القائمة المربوطة في اخر هذا الموضوع رقم (١). وقدمنا طلبا لوزارة الداخلية لترخيصنا بتشكيل الجمعية، ولما وقع على الطلب اعضاء الهيئة المؤسسة تركوا لي التوقيع على الطابع فوقعت وصدرت موافقة الوزارة باسمي. على ان تنتخب هيئة ادارية مؤقتة من اعضاء الهيئة المؤسسة لمدة شهرين وعلى ان نجمع هيئة عامة خلال هذه المدة لانتخاب هيئة ادارية لمدة سنة فاجمعت الهيئة المؤسسة وانتخبت سبعة اعضاء من بينهما وكنت احدهم. ولما اجتمعت الهيئة الادارية لانتخاب الرئيس ونائبين للرئيس والمعتمد والمفتش العام انتخبت رئيسا والدكتور سامي شوكت نائبا للرئيس والدكتور ابراهيم عاكف الآلوسي معتمدا والدكتور نجيب محمود مفتشا عاما. فاستغربت من اختياري رئيسا للهيئة الادارية وخاطبتهم قائلا لماذا انتخبتموني رئيسا وانا لم اكن في بادئ الامر حاملا فكرة تأسيس هذه الجمعية. وكان الاجدر بكم انتخاب احد الدكاترة الذين كانوا يحملون هذه الفكرة قبلي فأجابوني بانك اهل لها قبلت الامر الواقع. واخذت الهيئة الادارية تعقد اجتماعاتها للنظر فيما يجب القيام به. واتصلنا بوزارة الشؤون الاجتماعية التي عينت احد اطبائها ليكون واسطة اتصال بيننا وبينهما وسألنا الوزارة عما يجب علينا القيام به في باكورة اعمالنا فاجابت انه يجب تأسيس مستشفى في العاصمة لمداواة المصابين بهذا المرض الفتاك ويكون في الوقت نفسه مستشفى تصفية لارسال من يحتاج منهم الى المصحات حيث كانت الوزارة ترسل بعض المرضى الى مصحات لبنان قبل تشكيل الجمعية. وحيث ان الامر يحتاج الى مبالغ من المال فقد شعرت عن ساعد الجد ومعي بعض اعضاء الهيئة الادارية لمراجعة التجار والاغنياء بطلب التبرع بالمال. ولما تجمع لدينا المال حوالي الاربعين الف دينار قررنا لزوم القيام بانشاء المستشفى. وبقي علينا الحصول على قطعة ارض اطراف العاصمة وعلى ان تكون صالحة لانشاء المستشفى عليها وفتشنا على تلك الارض وانتهينا الى انشائه في مزرعة الزعفرانية التابعة للحكومة والواقعة عند ملتقى نهر ديالى بنهر دجلة فطلبنا خمسة عشر دونما من هذه المزرعة فاعطيت لنا وصدرت الارادة الملكية بتمليكنا اياها.

وكلفنا احد المهندسين المختصين بوضع التصاميم. وبينما كنا في انتظار الانتهاء من وضع التصاميم حدث فيضان سنة ١٩٤٩ فغرقت اطراف بغداد وغرق معسكر الرشيد ومزرعة الزعفرانية بما فيها الاراضي التي خصصت لبناء المستشفى عليها وعندها رأينا ضرورة صرف النظر عن انشاء المستشفى على هذه الارض خوفا من حدوث فيضانات اخرى تسبب غرق المستشفى. ولذلك اخذت افتش على قطعة ارض غيرها فارشدني مدير الطابو العام السيد حامد الجادر بوجود قطعة ارض اميرية في الجهة اليسرى من نهر ديالى وعند مصبها في نهر دجلة فذهبت الى مدير الاملاك الاميرية وكان اكرم زنيل وسألته عنها. فجلب السجلات وتبين له وجود قطعة اميرية مساحتها حوالي الثمانية دونمات في الموقع المذكور فطلبت منه اصدار ارادة ملكية لتحديد القطعة التي قرر المومى اليه التبرع بها مجانا الى الجمعية. واخذا المهندسون يذرعون الى ان وصلنا الى حد طبيعي وهو وجود سدة كبيرة فوقفنا عندها مكتفين بذلك. وقام مهندسو الطابو بتأشيرها على الخريطة وكانت حوالي الخمسة وعشرون دونما كلها واقعة على شاطئ نهر دجلة. وذهب السيد عبد المنعم الخضيري الى دائرة الطابو وتبرع بها الى الجمعية.

غير ان القطعة الاميرية وهذه المساحة التي تبرع بها المومى اليه كانت مسكونة فضولا من قبل اصحاب الصرائف والذي كانوا يعتبرونها ملكا لهم. وحاولنا اخراجهم منها فلم يوافقوا. وكانوا كلما ذهبنا الى هذه الاراضي للقيام بوضع الخرائط عليها يجهرون علينا مع نسائهم ويشبعوننا سبا وشتما مدعين انها اراضيهم واننا نريد سلبها منهم فراجعنا متصرف بغداد وطلبنا منه ترحيلهم عنها فلم يوافق المتصرف وطلب منا الدعوى على كل واحد من هؤلاء اصحاب الصرائف للحصول على حكم من المحكمة المختصة لاخراجه منها وكان عددهم لايقل عن خمسين شخصا وهو امر يطول تنفيذه. فرأينا الحصول على ارض اميرية لتقسيمها عليهم فننقلهم اليها. فطلبنا من الحكومة اعطاءنا خمسة دوانم من اراضي الزعفرانية التي كانت قد منحتنا اياها لبناء المستشفى عليها والتي تركناها لسبب غرقها في القيضان فوافقت الحكومة ومنحتنا خمسة دوانم منها فشكلنا لجنة من ثلاثة اشخاص وهم كل من يوسف العزاوي عضو مجلس الادارة والحاج سري مدير الادارة والمهندس السيد محمد لتقسيم هذه الارض على اصحاب الصرائف كل حسب حاجته لينتقلوا اليها وينشئوا دورهم عليها وعلى ان يأخذوا ابواب واخشاب وشبابيك صرائفهم ليستفيدوا منها وقررنا منح كل واحد منهم مبلغا من المال لتعينهم على انشاء دورهم الجديدة وهكذا انتهت هذه المشكلة ووضعت الخرائط لانشاء عشرة ردهات في بادئ الامر كل ردهة تحتوي على الادارة وصالة كبيرة للسينما والترفيه وجناح للاشعة مع صالة للعمليات الجراحية واحدى عشرة غرفة للمرضى الخصوصيين وجناح خاص للاطباء المقيمين وجناح خاص للممرضات. وجناح خاص للمطابخ والخازن مع غرف خاصة للمرضين والخدم. ووضعناها في المناقصة فرست على المهندس الشريف المخلص علي رأفت.

ثم فكرنا في امر الماء والكهرباء فقر القرار على ان نقوم نحن بانشاء مشروع الماء فباشرنا فيها وجهزنا المكائن واحواض التصفية والتعقيم واسسناه على نهر دجلة بعيدا عن مجرى ديالى لتجنب ملوحة ماء ديالى في موسم الصيف وكان ذلك في ارض عبد المنعم الخضيري الذي منحنا هذه الارض الاضافية مع ما يقع بينها وبين بناء المستشفى من اراض تكرما منه وفضلا.

اما مشروع الكهرباء فبعد مداولات كثيرة تقرر ان يطلب من مشروع كهرباء بغداد فراجعنا مديرية المشروع وبعد جهود كثيرة وافق مدير المشروع ان يمدنا بالكهرباء من مدخل معسكر الرشيد فنصبنا محولة من مدخل المعسكر ووضعنا تحديد الاعمدة والاسلاك وما يتبعهما في المناقصة وكان عدد الاعمدة حوالي المائة والثمانين عامودا فرست على كل من السيد محمود الدره وشريكه محمد الطريحي وقاما بهذا العمل على احسن وجه.

ولما حان الوقت للمباشرة بانشاء المستشفى وكان ذلك في اوائل سنة ١٩٤٨ وكنا نحن المكلفين باحضار مواد الانشاء لان متعهد البناء لم يأخذ على عاتقه احضار المواد الانشائية وانما تعهد بالبناء لا غير وكان اول عمل نقوم به هو احضار السمنت لصب الاسس فسألنا المهندس عن المقدار من السمنت الذي يحتاجه فقال انه يحتاج الى مائتين وخمسين طنا ولم يكن لديه منه الا خمسين طنا لذل فهو بحاجة الى مائتي طن وكان السمنت انذاك يستورد من الخارج اذ لم تكن معامل السمنت قد تأسست في العراق.

ولما سألنا عن قيمة الطن الواحد فقيل لنا ان قيمة الطن يساوي سبعة عشر دينارا ونصف ولايوجد الا لدى السيد سيمون كريبيان التاجر الارمني. فاخذت بعضا من اعضاء الهيئة الادارية وذهبنا الى محله. وكان الوكيل عنه ابن اخته السيد ليون ارتين ودخلنا عليها وقصصنا عليه قضية انشاء مستشفى لتداوي المرضى المصابين بمرض السل ونحن الان بحاجة الى مئتي طن من السمنت لوضع اسس المستشفى. فقام وفتح قاصته ونظر في بعض الاوراق ثم قال لنا هل يوافقكم سعر الطن الواحد احد عشر دينار ونصف فقلنا نعم وكتب لنا تحويل الى المخزن لتسليمنا مئتي طن فاخذنا التحويل وخرجنا شاكرين وعدنا الى مركز الجمعية وكتبنا له صكا بالمبلغ وبهذا يكون قد تبرع المومى اليه السيد ليون ارتين بالف ومائتين دينار الى الجمعية وبعد مدة سنة او سنتين توفي هذا الرجل فجأة واقيمت له حفلة تأبينية في البصرة فطلبنا من رئيس فرع الجمعية في البصرة ان يمثل الجمعية في الحفلة التأبينية ويلقي فيها كلمة يذكر فيها احسانه للخدمة الانسانية.

اما خاله السيد سيمون كريبيان فقد قام بجلب الشيلمان لتسقيف الردهات والمرافق التي يحتاجه المستشفى من بلجيكا على حساب الجمعية بدون ربح وذلك لعدم وجود شيلمان انذاك في العراق لسبب قرب انتهاء الحرب العالمية الثانية.

وجاء وقت شراء الشبابيك الحديدية وكانت الحاجة الى مئات الشبابيك وقد علم ان انها توجد في شركة داود ساسون الانكليزية فذهبنا لمقابلة مدير الشركة واعلمناه بمشروعنا فقال اني مستعد للتنازل عن الارباح ولبيعكم اياها اربعة عشر بالمئة ناقص عن البيع في الجملة وبذلك يكون قد تنازل عن ستمائة دينار للجمعية فشكرناه واستملنا الشبابيك ودفعنا الثمن ثم قام احد اعضاء الهيئة الادارية انذاك وهو السيد يوسف العزاوي فجمع اصحاب معامل الطابوق وطلب منهم التبرع بكميات من الطابوق الواحد فوافقوا وكان مجموع ما تبرعوا به حوالي الخمسة ملايين طابوقة.

ولما ظهرت الحقيقة للناس وشاهدوا ان الجمعية قائمة فعلا بانشاء المستشفى لتداوي المصابين بمرض السل وتخليص المجتمع من العدوى اخذت التبرعات تنهال على الجمعية واظهر بعض المحسنين رغبتهم بانشاء ردهة ذات ثلاثين سريرا على حساب كل واحد منهم. وكانت مثل هذه الردهة تكلف ستة الاف دينار. وتبرع كل من السيد ناجي الخضيري والسيد نوري فتاح والسيد عبد الهادي الدامرجي بستة الاف دينار وتبرعت مديرية السكك الحديدية العامة بمبلغ سبعة الاف دينار لانشاء ردهة خاصة لعمالها. وتبرع كل من الحاج صبيح الخضيري والسيد عبد الرحمن رؤوف بخمسة الاف دينار لانشاء ردهة باسم المرحوم والديهما. وانشاء السيد عبد الحميد الدهان على حسابه الخاص ردهة للاطفال المسلولين ذات اثنين وثلاثين سريرا. هذا والعمل قائم على قدم وساق لاكمال المستشفى باسرع وقت مع جميع ملحقاته التي ذكرتها انفا وتم انشاؤه خلال ثلاثة سنوات وتم فتحه لقبول المرضى في اوائل سنة ١٩٥١ وعين له الاطباء من جراحين وغيرهم وكذلك الممرضات والممرضين والخدم والطباخين والموظفين الاداريين من كتبة ومحاسبين.

اما الحاجة فقد كانت شديدة والمسجلين من المرضى كان عددهم كبيرا ورات ادارة المستشفى قبول المرضى حسب قدم تسجيلهم.

وقد رات الجمعية الضرورة ماسة لانشاء ردهات اضافية علاوة على الردهات العشرة التي تم فتح المستشفى فيها. ولذلك فقد قررنا انشاء ست ردهات اخرى كل دهة تتسع لاربعة وثلاثين سريرا ولا زالت الرغبة شديدة فقررنا انشاء سبع ردهات في وسط الحدائق. وبعد اكمال هذه الردهات اصبح المستشفى ذات اربعة وعشرين درهة يتسع الف سرير.

ولاتعجب ايها القارئ الكريم اذا قلت لك ان هذا المستشفى العتيد ذات الاربعة وعشرين ردهة والتي يتسع لالف سرير مع جميع ملحقاته من غرف خصوصية للمرضى والصالة والكبيرة للسينما والتسلية واجنحة الادارة والاشعة.

وبيوت الاطباء والممرضات وجناح المطابخ والمخازن ومشروعي الماء والكهرباء وغيرها من المستلزمات لم يكلف الجمعة اكثر من ثلاثمائة الف دينار وذلك بفضل اخلاص متعهد البناء المخلص وبفضل المساعدات والتسهيلات التي كان يقدمها التجار الذين تعاملت معهم الجمعية. نعم انه لم يكلف اكثر من ثلاثمائة الف دينار بل اقل من ذلك وكان ارباب الخبرة يقدرون تكليفها بمليون دينار او ما يزيد على المليون ونصف. وحيث ان مالية الجمعية والتبرعات التي تصلها لا تكفي لادارة هذا المستشفى العتيد بما في ذلك رواتب الاطباء والجراحين ورواتب الممرضات والخدم علاة على اطعام المرضى الذي يتراوح عددهم ما بين الثمانمائة والالف فقد رأت الجمعية ان تدع هذا الامر الى وزارة الصحة وتؤجر المستشفى لها بايجار حوالي الخمسة الاف دينار سنويا مع الاحتفاظ بملكيتها على ان تأخذ على نفسها جميع الاصلاحات والترميمات التي يحتاجها المستشفى من حين لاخر.

وكانت هذه الترميمات والاصلاحات تكلف الجمعية مبلغا يعادل مبلغ الايجار لعدم عناية المرضى واهمالهم بجميع المرافق.

وقد سعت الجمعية وبذلت جهودا كبيرة لتامين موارد ثابتة لها وقدمت عدة مقترحات بذلك. ومن جملة تلك المقترحات هو تخصيص فلسا واحدا الكل غالون يصرف من البنزين والنفط. وتخصيص واحد في المائة من ارباح الشركات المساهمة.

وتخصيص حصة لها من مشروع اليانصيب الخاص بجمعية الطيران. وعمل يانصيب خاص للجمعيات الاهلية الخيرية. وتخصيص مبلغ سنوي في ميزانية وزارة الصحة للجمعية.

وغير ذلك من المقترحات التي تؤمن واردات ثابتة للجمعية. ولم تنجح المساعي الا بموافقة الحكومة على اعطائنا حصة من ربح يانصيب جمعية الطيران وهو الربح من وارداتها حيث قسمت ارباحها الى اربعة ارباع (ربع لجمعية الهلال الاحمر وربع لجمعية حماية الاطفال وربع الى جمعية مكافحة السل في العراق) وتقرر عمل يانصيب خاص بالجمعيات الخيرية لانشاء المستشفيات الاهلية ولكن كان ربع هذا اليانصيب وضع تحت تصرف وزير الصحة ليصرفه على مشاريع الحكومة من المستشفيات ولم تستفد منه الجمعيات الخيرية وكنت ابذل الجهود لوضع مخصصات سنوية في ميزانية وزارة الصحة. وكانت هذه المخصصات تزيد وتنقص وهي تتراوح ما بين العشرة الاف والثلاثين الفا من الدنانير سنويا حسب رغبة وزير الصحة ومزاجه وكان اكثرهم غير مؤهل لاشغال الوزارة ولسوء الحظ كان اكثر وزراء الصحة انذاك يخالفون هذه الجمعية ويضعون العراقيل في سبيلها مع انها اي الجمعة اسست لخدمة الفقراء والمساكين المصابين بهذا الداء الوبيل هذه الخدمة التي هي اوجب واجبات الحكومة فخففت عن كاهلها تلك المبالغ التي كانت تصرف على ارسال بعض المصابين الى مصحات لبنان حيث ان هذا المستشفى والعمليات الجراحية التي تجري به للمصابين والعناية التامة التي تبذل لهم فيه عوضت عن ارسال المرضى الى مصحات لبنان.

ذكرت اعلاه ان اكثر وزراء الصحة كانوا يعاكسون مشاريع الجمعة لان اكثرهم كان من غير ذوي الكفاءة لاشغال هذا المنصب الوزاري وانما كانوا يشغلونها متجه للنفوذ المتحكم او الطائفية وهم بعيدون كل البعد عن اشغال مثل هذه الوزارة ولذلك فهم لا يقدرون خدمات الجمعية، فائدتها للمصلحة العامة.

لما ضقت بهم ذرعا قررت ان اكلف السيد جميع المدفعي باشغال منصب رئاسة الجمعية لانه كان رئيسا للاعيان كما وانه كان مهيئا في كل حين لاشغال منصب رئاسة الوزراء التي اشغلها عدة مرات والناس كما تعلم عبيد السلطة فكلفته بذلك وكان عضوا في الهيئة العامة على ان ننتخبه اولا عضوا في الهيئة الادارية ومن ثم تنتخبه الهيئة الادارية رئيسا للجمعية. قررت هذا خدمة لمصلحة الجمعية رغم اعتراض بعض اعضاء الهيئة الادارية فوافق المومى اليه على ذلك وهو المعروف في خدمة المصلحة العامة على شرط ان ابقى نائبا للرئيس ادير شؤون الجمعية ويكون هو رمزا للرئاسة لتمشية شؤونها في الدوائر الحكومية وهكذا كان الامر منذ سنة ١٩٥٢ الى سنة ١٩٥٨ وهي السنة التي توفى رحمه الله فيها. وكان رحمه الله يمشي في جميع الشؤون التي كنت اكلفه فيها بدون تردد وكان وزراء الصحة العظام لا يردون له طلبا. وبعد وفاة المرحوم السيد جميع المدفعي سنة ١٩٥٨ اعيدت إلي رئاسة الجمعية رغم رغبتي في التخلص منها.

من كتاب (تاريخ اعلام الطب في العراق)
للطبيب الراحل توفيق الفكيكي

حكاية قصر الياهو ساسون خضوري في الديوانية

نبيل عبد الأمير الربيعي

إن مصدر اسم الديوانية هو المضيف أو القلعة التي أمر ببنائها الشيخ حمود آل حمد آل عباس رئيس عشيرة خزاعة عام١٨٥٤ من الطين بالجانب الغربي من المدينة بواسطة الفلاحين لاستقبال الضيوف ،وبالعرف العشائري يطلق على هذا المكان الديوانية كون بناءئها من الطين وليس من القصب والبردي ،وقد تم بناء بيوت حول المضيف من قبل فلاحي الديوانية وخاصة من عشيرة خزاعة مما اتسعت وبزغ اسم مدينة الديوانية بدل اسمها السابق الحسّكه وقد اختفى هذا الاسم،ولا زال يطلق اسم الديوانية على الغرف التي تستقبل الضيوف،ويؤكد المرحوم ودّاي العطية في كتابه (الديوانية قديما وحديثا) إن الديوانية أنشأت عام ١٧٤٧ في ص٢٦ .

وبسبب تدفق مياه نهر الفرات على أراضي الديوانية وأطرافها ومنها الشامية وعفك وسومر فقد اشتهرت بزراعة الشلب(الرز) بأنواعه ،وقد اشتهرت الشامية برز خلاصجي الذي تنتجهُ أراضي اليهودي العراقي الياهو ساسون خلاصجي .

وفي أيام الاحتلال البريطاني للعراق توسعت الديوانية وتم الاعتناء بها من الجانب الصحي وردم المستنقعات المحيطة بها ، واحدث صناعة الطابوق معمل للثلج ومعمل لطحن الحبوب ، وتم ربط الديوانية بطريق بري يربط العاصمة بغداد ، أما في النظام البعثي السابق فقد أهملت هذه المدينة من الجانب الخدمي والعمراني بسبب ميول أغلب أبنائها للحركات اليسارية والماركسية في بداياتها.

موضوع اهتمامي في مقالتي هذه هو قصر الياهو ساسون خضوري التاجر اليهودي العراقي الجنسية، في طفولتنا نمر من أمام هذا القصر المطل على نهر الديوانية المتفرع من نهر الفرات ويعد من أجمل الصروح والآثار العراقية المهملة ، ذات واجهة عالية شاهقة وأعمدة كبيرة والطارمة العريضة والبناء ذات الطراز العصري والغرف المتعددة المطلة على الشارع العام والمشرفة على النهر ، والمستندة على الأعمدة ذات الطراز الروماني، حيث يذكر والدي المرحوم عبد الأمير الربيعي قبل وفاته إن الذي شارك ببناء هذا القصر وعمل زخارف واجهته هو الأسطة عبد الكاظم أبراهيم حمادي وكذلك مشاركته في بناء المحافظة القديمة وبناء الأعمدة المدورة والذي أتذكر عند مروري أمامها تاريخ الإنشاء بكلمات بارزة من ضمن البناء أعالي الشرفة عام١٩٣٤ التي ترتكز عليها جسر المحافظة والذي أزيل مؤخراً ببناء شرفة حديثة ضيعت المعالم القديمة . لقد وضعت اللمسات الفنية على نهاية الأعمدة لقصر خضوري من الزخارف والكتابات الموجودة في الواجهة الأمامية ، وعند هجرة الياهو ساسون خضوري استغل من قبل محكمة الديوانية في فترة الخمسينات وهنالك روايات إن السيد خضوري قد باعه قبل هجرته من العراق بسبب الاضطهاد الذي تعرض له يهود العراق في كافة محافظاته، أصبح قصره الآن مخازن ومكاتب وبقية البناية دون ترميم بالرغم من قدمها وقيمتها التراثية ، والإهمال وتسرب المياه الجوفية التي أكلت سردابها وجدرانها.

لقد سفّر الياهو ساسون خضوري وترك العراق في فترة الأربعينيات القرن الماضي ، كان من كبار تجار الديوانية ويقول أهل الديوانية القدماء إنه تمكن من بيع بعض أملاكه ومنها بيته الثري الواقع قرب شارع علاوي الديوانية الى السيد السيخ عبود آل شنين من شيوخ الديوانية، كما أقام الياهو ساسون خضوري أول معمل للثلج وماكنه طحن الحبوب . لقد اتهمت الأنظمة السابقة من العهد الملكي والبعثي بأن اليهود هم الطابور الخامس داخل العراق ، ولكن واقع الحال هم أكثر إخلاصاً ووطنية وحباً للعراق من الساسة أنفسهم السابقين والحاليين، حيث لا ناقة لليهود العراقيين ولا جمل في الضلوع في أي مؤامرة تجاه العراق ولم يكونوا يوماً سبباً في تأسيس دولة إسرائيل عام ١٩٤٧ ، وهذا موقف يهود العراق.

فلقد كانت دولة إسرائيل هي صنيعة مؤامرة عالمية شارك بها أكثر من طرف وكان اتفاق بين المستعمر الإنكليزي ورئيس وزراء العراق نوري السعيد والحركة الصهيونية . لقد انغرست جذور اليهود في العراق لأكثر من ٢٥٠٠ عام، جاؤوا لبلاد وادي الرافدين سبايا العهد البابلي وملكها حمورابي ، فأخلصوا لوادي الرافدين وأمسوا أهل العراق دون مزايدة ،وقد كانت تجمعاتهم تمثل عصب مدينة الديوانية . من منا يتغافل مساهمة يهود العراق في الحركات السياسية اليسارية والثقافية والعلمية ، ومن ينكر دور اليهود في نقل الأفكار التقدمية واليسارية والماركسية إلى العراق أثناء دراستهم وسفراتهم إلى الدول الأوربية ، ما زال زقاق اليهود في أغلب مدن العراق يتذكرها كبار السن .

لقد خسر العراق لتهجيره الرعيل الأول من مثقفي العراق سواء كانوا يهود أو اتهموا بالفارسية مثل جعفر الخليلي ذلك المبدع والروائي الذي هجر قسراً الى ايران ، لقد هجرت السلطات السابقة الكثير من الأدباء والصحفيين والاقتصاديين والكفاءات في جميع مجالات الحياة العامة تؤكد سيرهم مدى إخلاصهم ونزاهتهم في العمل ، فقد استأثر السياسيين اللاحقين بالسلطة وأشاعوا الخراب والفساد في دوائر الدولة. والآن هدفهم تقسيم العراق إلى دويلات طائفية قومية ، بينما العراق هو ذات مكون متعدد الأطياف، لم نعرف يوما في حياتنا السابقة هذه الألفاظ الطائفية المقيتة كنا شعب نتعايش بوئام ومحبة عربا وكردا ومسيحيين وصابئة ويهود ،ولكن السياسات القومية والعنصرية الشوفينية والاسلاموية الحديثة بدأت تزرع العداء بين أفراد العراق الواحد وحاملي مشروع التقسيم الطائفي الأثني.فقد كانت العوائل اليهودية في الديوانية تمتهن التجارة في الحبوب والأقمشة وصياغة الذهب ، فبيت جبران قد عرفوا بمهنة الصياغة وسوق التجّار مشهور بمركز الديوانية، وقد استقرت في المدينة عام ١٨٧٨ ويتذكر اهلنا كل من الأخوين سلمان وهارون أولاد جبرائيل وأولاد سلمان هم ابراهيم والياهو وصالح وأولاد هارون هو الياهو وقد هاجرت هذه العائلة إلى إسرائيل بعد المضايقات التي استمرت ضدهم من قبل الشرطة السرية ومديريات الأمن بعد السلطة البعثية وبعض المقربين للنظام الملكي. ومن عوائل الديوانية عائلة قوجمان(الرجل الشجاع) التي استقرت في الشامية ثم عادوا إلى الديوانية وجدهم الأكبر يحيى قوجمان وأحفادة الياهو وسالم وعزره ويوسف أولاد اسحاق.

فقد اهتمت عائلة ساسون معلم بعد استقرارها في الديوانية عام١٩١٩ بتجارة الحبوب ، ثم امتلكوا أراضي في منطقة الشامية ، وكان الياهو معلم جدهم الأكبر وقد خلف ابنه ساسون صالح وعزت ، ومن أبناء صالح يعقوب الذي هجرة العائلة إلى إسرائيل عام١٩٧١، ومن أولاد عزت البروفسور شموئيل سامي مورية صاحب الحلقات والذكريات الشيقة (ذكريات وشجون) على موقع إيلاف، وقد صدر للمؤلف كتاب في بغداد بطبعة غير منقحة وأخطاء لغوية وبدون علم المؤلف وهذه لصوصية المطابع العراقية المخجلة والمعيبة ، مثل هذا البروفسور المتخصص بالأدب العربي وزملائه من العلماء والمفكرين لو افترضنا لم يهجروا وكان بقائهم في العراق ، كان لهم الدور الأكبر في بناء العراق وفائدة أبنائه من معلوماته العلمية ولما كان الوضع الاقتصادي والسياسي اليوم الذي اصبح العراق لعبه بأيدي أناس منتفعين من أموال العراق ولم يرأف شعورهم تجاه أبنائه، ولكن السياسة الجاهلة والسلطات المتخلفة.

لقد أنشأت عائلة ساسون معلم وأولاده صالح وعزت أول معمل فني للطابوق في الديوانية وله قصه غريبة في استيلاء سلطة البعث على المعمل ومصادرته ذكرتهُ في مقالة سابقة ، وتتذكر والدتي محلات الصياغة وامتهان اليهود والصابئة بهذه المهنة ومنهم اليهودي العراقي منشي الذي امتهن صياغة الفضة والذهب وذاع صيته في الديوانية ونواحيها، وتقدر أعداد اليهود العراقيين في الديوانية قبل التهجير الظالم بما يقارب ٨٠٠ نسمه ، فقد تم مضايقتهم مما اضطروا للهجرة القسرية وإسقاط الجنسية العراقية بقرار حكومة توفيق السويدي عام ١٩٥٠ ولم يبق منهم في الديوانية أي فرد من اليهود العراقيين.

لقد سببت قيام دولة إسرائيل الأثر والأسى ليهود العراق بعد توجه دولة إسرائيل نظرها إلى يهود العراق بسبب إحجام يهود أوربا من تلبية نداء الهجرة إلى إسرائيل أثر حرب عام ١٩٤٨ ،فالوطن الموعود كان غريباً على هؤلاء المهجرين والمهاجرين منذ اللحظة الأولى لوصولهم اليه.

ذاكرة عراقية

ملحق أسبوعي يصدر عن مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون

رئيس مجلس الإدارة رئيس التحرير
فخري كريم

مدير التحرير: علي حسين
هيئة التحرير: باسم عبد الحميد حمودي . رفعت عبد الرزاق
الاخراج الفني: نصير سليم التصحيح اللغوي: مروان عادل

طبعت بمطابع مؤسسة
للإعلام والثقافة والفنون